الدراسات الإسلامية

# موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية

سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية
الشيخ حسن خالد

معهد الإنماء العربي

الدراسات الاسلامية

# موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية

سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية
الشيخ حسن خالد

معهد الإنماء العربي

الطبعة الأولى بيروت - ١٩٨٦

معهد الانماء العربي
ص. ب ..٥٣٠/ ١٤
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فإنه قبيل أن ينعقد المؤتمر الثالث للسيرة النبوية في قطر، وضعت اللجنة المشرفة عليه، مجموعة من الموضوعات المطلوب دراستها ومناقشتها في هذا العصر، إسلامياً. ورغبت الى المدعويين اختيار واحد منها والكتابة فيه. وقد اخترت يومها موضوع «موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الوثنية واليهودية والنصرانية» وكتبت فيه بحثاً مختصراً بسبب عامل السرعة من ناحية، وبسبب ما يتطلبه الظرف حينذاك لكثرة ما قدّم من أبحاث، ولضيق الوقت المخصص لدراستها فيه وابداء الرأي فيها.

وقد شئت اليوم، وقد آنفسح لنا الوقت، وأصبح الظرف ملائماً لانعدام المعوقات، أن أعطي هذا الموضوع ما يتطلبه من اهتمام وتفرّغ حتى يجيء بحثاً كاملاً ونافعاً في الوقت نفسه، وبخاصة وأن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الديانات المذكورة، هو في الحقيقة موقف الاسلام العظيم. هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس وحده دون سواه، وحكم على من آتبع غيره أو ارتضاه لنفسه بأنه من الخاسرين، يوم الهول الأكبر؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

ولما كان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم هو موقف الاسلام، فقد شئت تعديل عنوان البحث وجعله: «موقف الاسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية».

وهكذا فقد عكفت على البحث من جديد أزيده جهداً وتدقيقاً، حتى وُفّقت

الى أن أدخلت عليه بعض الاضافات المهمة . كما ألحقت به من المباحث والمعلومات ما يتطلبها ويقتضيها ، والتي لم يكن بدٌّ من الحاقها به . ذلك أن البحث مهم جداً يمسُ حاجة الناس كلّهم ، ويعالج فكرهم الديني من قريب أو بعيد تأييداً أو نقداً أو رفضاً .

والمجتمعات الإنسانية في القرن العشرين تبدّلت عما كانت عليه في المجتمعات الإنسانية السابقة ، فلم تعد مثلها قديماً ؛ متباعدة متقاطعة متنافرة ومختلفة كل الاختلاف في العقيدة والنظام والسلوك ، والاعراف . إذْ قد لعبت الحضارة الحديثة دوراً عظيماً فيها ففتحت بعضها على بعض عن طريق وسائل النقل الحديثة ، ثم عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة ودور التربية والتعليم الجامعية ومؤسسات الثقافة والتأليف والنشر ، وعن طريق المؤتمرات المتنوعة والمتعدّدة التي ما زالت تعقد في كل يوم في عواصم الدنيا ، ويشترك فيها المختلفون فكراً واعتقاداً وسلوكاً ونظاماً ـ والمتوافقون ـ ويتبادلون الرأي والنقد والأخذ والعطاء . هذا فضلاً عن أثر جهود مؤسسات السياحة التي لا تدّخر وسعاً في نقل الناس من كل الشعوب ومن كل الثقافات والعقائد والآراء من بلد الى آخر ، وتقرّب بعضهم من بعض بأيسر التكاليف وأسرع الوسائل وأكثرها راحة في كل مجالات المعرفة والعلم التي زادت بعضهم من بعض مع الزمن قرباً وصلة وتعارفاً .

وهذه الظاهرة الواضحة لكل ذي لب ، لم تعد تسمح بأن يبقى المفهوم الديني حكراً على تابعيه ومعتنقيه ، بحيث يعيشه المتديّنون به منعزلين عن سواهم جاهلين بهم وبما لهم من العقيدة والعلم والثقافة ومبغضين لهم ، بل وحاقدين عليهم . وقد يسّرت الحضارة المعاصرة لكل إنسان في أي مكان من العالم حتى وهو في وطنه أو بيته أو مكتبه ، التعرّف على ما يجري في أطراف الدنيا على تنائيها من فكر وعقائد وعادات وأيديولوجيّات ، خلافاً لما عنده من ذلك أوْ وفاقاً له ، كما يسّرت له اللقاء بمخالفيه في الدين دونما تحرّج ، بعد أن كان يعتبر ذلك في الماضي إثماً وصغاراً وخروجاً على الجماعة ، فضلاً عما كان يسبّبه ذلك له من متاعب

تستحقها الشكوك التي تثار حوله وفيه...

وبعد أن كانت السكنى في أحياء المخالفين في العقيدة والدين ممنوعة كلياً أو متحرّجاً منها الى حد بعيد، وبعد أن كان الالتقاء فيما بينهم في دور واحدة للعلم، ممنوعاً أو غير مألوف، وكذلك في غيرها من المؤسسات الثقافية والإدارية والاقتصادية والصناعية، أصبح الاختلاط الاجتماعي في السكن وفي دور العلم والمؤسسات الثقافية والإدارية والاقتصادية والصناعية أمراً عاديّاً يشكو منه القليلون ويسكت عنه الكثيرون بل ويشجعون عليه. وأصبحت مجالات العيش كلها ساحة مفتوحة أمام الناس من كل دين وجنس ولون ومذهب، يدخلونها ويختلطون فيها دونما حرج، بل ودون أن يعرف بعضهم أو يكلف نفسه بأن يعرف عن البعض الآخر شيئاً عن المعتقد أو الفكر أو المنهج الحياتي. وصدق الله العظيم القائل: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلةٍ معرضون لاهيةً قلوبهم﴾[1].

كل هذا غدا يتطلب منّا الكثير من الإرشاد والتوعية، وتيسير العلم الضروري على الأقل الذي يفتح الأذهان ومغاليق الفكر ليسهل إطلال الناس، كل الناس على الحق والحكمة ويفيدوا منها، ويتعرفوا على ما حولهم بصدق وصفاء، ويتعاطوا معه بإخلاص ومحبّة ورغبة في التعاون والتفاهم بعيداً عن أجواء التوتر التي كان ينشرها قديماً التعصب الديني الحاقد القائم على مجرد الكره والبغض والجهل.

وقديماً قيل إن الانسان عدو ما جهل، وإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره وعمي عن عيوبه.. وعليه فإنه لم يعد مقبولاً في هذا القرن ذي الامكانات المدهشة، عصر النزول على القمر وبناء الأقمار الصناعية في الفضاء، والقيام بالرحلات الجويّة العجيبة الرهيبة، ووجود الدماغ الالكتروني؛ لم يعد مقبولاً أن يعيش الإنسان مُتَقَوْقِعاً في أجواء الجهالة القائمة والتعصب الذي يعمي القلب عن رؤية الحق والنور ويصم الأذن عن سماع الخير والهدى.

---

(١) الانبياء ١ـ ٢.

ولئن كان مفروضاً اليوم التعرّف على موقف الشيوعية من الرأسمالية واليسار من اليمين ـ والعلمانية من الكنيسة أو العكس ـ وكل مذهب من المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية من الآخر، فقد أصبح من الضرورة بمكان التعرف الى موقف النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام من الأديان الشائعة اليوم والتي كانت قائمة في عصره كالوثنية واليهودية والنصرانية. وأصبح من الواجب بمكان أيضاً التوسع في شرح هذا الموقف بعد كل الملابسات التي أتينا على ذكرها سابقاً، ليكون قريب المنال من كل إنسان، ليفتح عينيه على الواقع ونفس الأمر ويمحّص الحق من الباطل والهدى من الضلال والغث من الثمين والطيّب من الخبيث والنور من الظلام، دون أن يكون مشحوناً بتعصب أو بغض مفتعل أو حقد مصطنع أو شيء من ذلك، يحرمه الرؤية الجليّة والمعرّفة الصادقة والنظرة الصحيحة..

إن هذا البحث المتواضع الذي أضعه اليوم بين يدي القارىء، هو محاولة مخلصة تبغي الحق وتترجّى الخير. وهو مسعى جادّ من منطلق المحبة يؤمل أن يجد فيه القارىء ما يرشده الى حق أو يهديه الى سبيل أقوم.

على أن كل محاولة في مثل هذا الشأن أو سواه، معرّضة، مهما أوتيت من صفة الجد والاجتهاد والإخلاص، لأن تخطىء أو تزل، وقابلة لاحتمال النسيان أو التقصير... بيد انها يبقى لها وصفها وهدفها وحكمها. ومن اجتهد وأخطأ فله أجر. ومن اجتهد وأصاب فله أجران. وليس على المحسن من سبيل، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ فنسأل الله تعالى التوفيق والعفو وهو من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

بيروت ـ ١٩٨٥

حسن خالد

# الكتاب الأول

## موقف الإسلام من الوثنية

# المدخل

**محمد رسول الله:**

محمد رسول الله. آمنّا به وشهدنا أن ما جاء به هو الحق. نطوي على ذلك قلوبنا ونؤكده لمن شابت نفوسهم الرِّيَب في ذلك ممن أوتوا نصيباً من العلم ومستوى من الفكر الرشيد من الماديين والملحدين ومن أهل الكتاب وسواهم.

**الحق يفتقر الى بيان ونُصْرَة:**

والحق رغم كل ظروفه المطمئنة يظل مفتقراً الى بيان. لأن بعض العقول كثيراً، ما تصيبها غاشية من جهالة أو يعتريها سحابة من هوى أو زيغ فيختلط عليها الأمر فيه حتى يجلّيه البيان، تماماً كما يكون حال البصر عندما يغشاه الظلام فتنطمس عليه حقائق الأشياء، ولا تنكشف له كما هي عليه، إلا بعدما يلامسها شعاع الضوء...

وكذلك يظل الحق، ولو كان حقاً، مُفتقراً الى نُصْرة؛ إذْ البيان وحده لا يكفيه أحياناً فهو وإن كان يوضحه ويجلوه ويبدو صحيحاً لكل ذي لب، إلا أنه تبقى تحول دونه حجب الهوى والمصلحة، وهي كثيراً ما تؤذيه وتؤذي حَمَلَته، وتكون سبباً لضياعه وخسرانه كما تكون سبباً لضلال مناوئيه وانحرافهم عن معالمه البيّنة وحدوده الواضحة.

**محمد الأمين:**

ولقد اشتهر أن محمداً ﷺ عاش في قومه حتى الأربعين من عمره وكان مثلاً

للخلق الكريم والسلوك القويم والسمعة الطيبة والسيرة الحميدة. اشتهر بالصدق والأمانة حتى لقّبه قومه بالأمين. وعرف بالعفّة والنزاهة وسمو الخصال فألفوا عشرته وأحبوه وتسابقوا الى التودد إليه والتقرّب منه حتى آختارته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي من هي في قومها نسباً وعلوّ كعب وشموخ مقام ليكون عاملاً لها يشرف على تجارتها ويدير لها أعمالها ومصالحها. ثم رغبت إليه، بعد أن ثبت لها فضله وتحقّقت من سمو خلقه، ليكون لها زوجاً، بعد أن كانت قد رفضت كل الذين تقدموا لخطبتها من أشراف قومها وزعمائهم.

**محمد الأمي:**

ولقد بُعث ﷺ على رأس الأربعين من عمره في قبيلة قريش التي كانت تسكن مكة المكرمة، وفي قلب العرب الأميّين. وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، شأنه شأن العرب الذين نشأ فيهم والذين كانت تغلب فيهم صفة الأميّة. ولقد كان هذا الوصف له ﷺ فريداً في الأنبياء. إذْ لم ينقل أن الله تبارك وتعالى قد بعث نبيّاً أميّاً غير نبيّنا محمد ﷺ. فكانت الأمية وصفاً خاصاً به لم يشاركه فيه أحد من النبيّين السابقين عليه، يقول الله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لآرتاب المبطلون﴾[1].

وقال آبن عباس رضي الله عنهما: «كان نبيّكم ﷺ أمّياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب». وقال ﷺ: «إنا أمّة أمية لا نكتب ولا نحسب».

ولقد كانت ظاهرة الأمية في رسول الله ﷺ دلالة إعجاز، وعلامة على خرق ما آعتاده الناس وجروا على التعارف عليه، وذلك كما قال الفخر الرازي: «لأن تعلم الخط شيء سهل. وإن أقلّ الناس ذكاءً وفطنةً يتعلمون الخط بأدنى سعي. فعدم تعلّمه يدل على نقصان عظيم في الفهم غالباً. والله تعالى آتى محمداً ﷺ علوم الأولين والآخرين. ومنحه من المعارف والعلوم والحقائق ما لم يصل اليه أحد من

---

(١) تفسير المنار الجزء التاسع، ص ٢١٦ ـ العنكبوت ٤٨.

البشر . وقد جعله الله مع كل هذا بحيث لم يتعلم الخط مما يؤكد على قيام ما هو معجز فيه. فضلاً عن أنه ﷺ لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين واكتسب منها الكثير من المعارف والفضائل، ولدخل من هذه الثغرة كثير من المضلّلين والمرجفين ليلصقوا به الأكاذيب والفرى »[1] ولكن هيهات أن يصدق شيء من ذلك في حقه. وهو حامل القرآن الكريم، معجزة الله التي منحها للإنسان، وحامل دين الإسلام وشريعته الكاملة التي نظم بها حياته الدنيا وأعدّه بها للآخرة ليعيش في كلتيهما عيش السعادة الآمنة المطمئنة.

**تكذيب قومه له:**

ولقد اختاره الله تعالى للرسالة وهو على رأس الأربعين وقد بلغ أشدّه وآستوى، فأمره بأن ينذر عشيرته الأقربين ومن بعد ذلك قومه. فصدع بما أمر به. ودعا أهله ثم قومه، ثم الناس أجمعين. قال الله تعالى: ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾[2] وقال: ﴿يا أيها النبي بلّغ ما أُنْزِلَ إليك من ربّك﴾[3] وقال: ﴿وما أرسلناك إلا كافّةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4]. وقد تصدّى له الأكثرون من عشيرته وقومه وكذبوه وصَدُّوا عنه الذين كانوا يرغبون باتّباعه ومشايعته.. وآمن به الأقلون وأكثرهم من ضعفاء القوم.

**اتباع الضعفاء له ظاهرة صدقه ﷺ**

ولقد كان اتّباع الضعفاء له احدى ظواهر صدقه، وإن كان قومه يعتبرونه ظاهرة ضعف وتخلّف كما نقل الله تعالى معنى ذلك على لسان الكافرين فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه. وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم﴾[5].

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٧٨/٢٥.

(٢) الشعراء ٢١٤.

(٣) المائدة ٦٧.

(٤) سبأ ٢٨.

(٥) الأحقاف ١١.

والضعفاء في كل قوم يمثلون في الغالب الجناح القاصر. ويخضعون لوسائل الضغط المختلفة التي يمارسها عليهم أسيادهم وكبراؤهم. وهم بهذا الوصف يُفقدون من يتّبعونه ويكونون في صفه الكثير من عناصر القوة والدعم. غير أنهم في الغالب أيضاً يمثلون مع الإيمان الصدق والإخلاص في الاتّباع مع التجرّد عن الهوى، وبخاصة عندما يتحمّلون بالصبر على الآلام، ويصمدون على الوعيد والتهديد ويثبتون في مواجهة نفوذ السلطة الظالمة. وكيف يمكن أن يتحمل كل ذلك فقير أو ضعيف وهو أحوج ما يكون الى رضا سيّده أو رضا السلطة إذا لم يكن قد انكشف له الحق وتجلّى لـه نوره واهتدى له قلبه؟!

ويؤكد هذا المفهوم ما حدثنا عنه التاريخ في وقائع التابعين للرسل على مرّ الدهور، مما جعل الحكماء يتعرفون بهم على صدق دعوة الرسول الذي يتّبعونه. وما أمر هرقل ملك الروم عن هذا ببعيد... فقد روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل ملك الروم أرسل إليه في ركْب من قريش. وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ حادّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش فأتوه وهم بإيْلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه وقال:

«أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم انه نبي؟ فقال أبو سفيان: «فقلت أنا أقربهم نسباً» فقال «أدنوه مني، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره» ثم قال لترجمانه: «قل لهم إني سائل هذا الرجل. فإن كَذَبني فكذبوه» فطرح على أبي سفيان أسئلة عديدة جاء فيها قوله: «فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم»؟ فقلت: «بل ضعفاؤهم» قال: «أيزيدون أم ينقصون؟» قلت «بل يزيدون» قال: «فهل يرتدّ أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه»؟ قلت «لا» قال: «فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال»؟ قلت «لا». وبعد أن طرح القيصر على أبي سفيان ما شاء من الأسئلة واستمع إلى اجاباته عليها، علق عليها جميعها واحداً بعد الآخر حتى انتهى الى ما يلي: قال: «وسألتك اشراف الناس

اتبعه م ضعفاؤهم. فذكرت ان ضعفاءهم اتبعوه، وهم اتباع الرسل. وسألتك ايزيدون ام ينقصون. فذكرت أنهم يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم. وسألتك يرتد أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب﴾[1]

**بعض الأدلة على صدقه ﷺ**

هذا وإن شهادة قومه ﷺ بالأمانة والصدق قبل ظهوره بالنبوّة وإن اتّباع الضعفاء له قبل الكبراء، وإن صبر هؤلاء ونضالهم في سبيل الدعوة، وإن ثباته واعتماده الحكمة والموعظة الحسنة فترة ثلاثة عشر عاماً دون اللجوء الى استعمال القوة حتى للدفاع عن النفس، ثم تتابع ازدياد المؤمنين ونماء الدعوة وانتشارها وعدم ارتداد أحد من الاتباع سخطة لدينه، وإن صبرهم جميعاً على الأذى والحرمان، وطاعتهم العجيبة للرسول وبذلهم النفس قبل النفيس في سبيل الدعوة طمعاً في رضوان الله، وإن تأييد الله تعالى له بالقرآن الكريم وما حواه من تشريع حكيم وأخبار بالغيب مما كان في غابر الزمان وخفي على العيون والأذهان، وما يجد في مستقبل الأيام، وما لفت النظر اليه من الآيات الكونية وأطوار خلق الإنسان، ثم ما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم والحكم والمعجزات الباهرة التي كان يتحدى بها قومه أقول إن كل ذلك وغيره مما لم نشر إليه، وهو الأمي، لهو أدلة ساطعة على صدقه ﷺ تؤكد بما لا مجال معه للإرتياب انه رسول رب العالمين وان ما جاء به هو وحي من عند الله كما قال الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى علمه شديد القوى﴾[2] وقال: ﴿ويقول الذين كفروا لستَ مُرسَلاً، قل كفى بالله

---

(1) فتح الباري الجزء الأول صفحة ٣٢

(2) النجم ١ ـ ٥

شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[١] أي «الذي حصل عنده علم التوراة والانجيل. يعني ان كل من كان عالماً بهذين الكتابين، علم اشتمالها على البشارة بمقدم محمد ﷺ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهداً على أن محمداً ﷺ حق من عند الله تعالى..»[٢].

(١) الرعد ٤٣.

(٢) الفخر الرازي الجزء ١٩ ص ٧٢.

# الفصل الأول

# نظرة عامة في وثنية العرب قبل الإسلام

١ - أمية العرب وجاهليتهم
٢ - الوثن والصنم
٣ - رسوخ الوثنية قبل البعثة
٤ - تعدّد الأصنام والآلهة
٤ - من أبرز آلهة العرب
٥ - اصنام أخرى
٦ - العرب موحّدون قبل جاهليتهم
٧ - فعل عمر بن لُحيّ
٨ - عبادات أخرى من ظواهر الطبيعة
٩ - تنوّع الشرك الجاهلي
١٠ - فلسفة العرب لعبادتهم الأصنام
١١ - الأصنام رمز للقبيلة
١٢ - كيفية نشوء هذه العبادة

- أميّة العرب وجاهليتهم:

كان العرب في الجاهلية وقَبْل الإسلام يتميّزون بفصاحة اللسان وبلاغة المنطق. وكانوا مع ذلك أميِّين لا يقرأون ولا يكتبون إلا من وفقّه الله الى ذلك. وكان الذين يقرأون ويكتبون منهم قِلّة نادرة. ولقد غلبت عليهم لذلك صفة الأميّة فقال الله تعالى فيهم ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويُزكّيهم ويُعَلِّمُهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قَبْلُ لفي ضلال مبين﴾[1].

ورغم أنهم كانوا أحدَّ الناس أذهاناً. وأقواهم جناناً وأصفاهم فطرة وأبعدهم عمّا يصيب المتحضّرين والمتمدّنين أحْياناً من الغواشي النفسيّة والخلقيّة، فقد عميت أبصارهم عن كثير من الحقائق، وزاغوا عن سواء السبيل فبدلّوا ما ورثوه من دين ابراهيم وغيّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين ريباً وشكاً، وابتدعوا من الدين والعبادة ما لم ينزل الله تعالى به سلطاناً وما لم يأذن به، فعاشوا في جاهلية عمياء وفي متاهة سوداء...

ولقد كان من آثار جاهليتهم هذه عادات وتقاليد غلب فيها الانحراف عن خُلُق الإنسان السوِيّ ومنطقه السديد؛ وعبادات وعقائد فيها من الإسفاف والهوان ما لا يقوّم سلوكاً ولا يهدي فكراً. بل ما يحكم على من التزموا بها

---

(١) الجمعة ١.

بالضلال المبين وتجعلهم يرتكسون في فساد بعد فساد ويترددون بباطل إثر باطل. يقول الله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول، ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾[1] ويقول: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم وما لا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[2].

ويوجز جعفر بن أبي طالب جاهلية العرب قبل ظهور الإسلام فيقول للنجاشي ملك الحبشة: «أيها الملك كنا قوماً على الشرك. نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار. يستحل المحارمَ بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها. لانُحِلّ شيئاً ولا نحرّمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا الى أن نعبد الله وحده لا شريك له ونصل الأرحام ونحمي الجوار ونصلّي لله عزّ وجل ونصوم له ولا نعبد غيره» وعن ابن اسحاق «فدعانا الى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة.»[3].

ومثل هذا الكلام يعبّر بإيجاز ووضوح عن الخزي المبين الذي كان يظلل عيش الجاهليين في ممارساتهم الشخصية والاجتماعية والدينية، ويعكس أضواء كاشفة لواقع المجتمع العربي في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام.

وقد ساق الله تعالى بعض صفات أبناء الجاهلية، فذكر منها ضلال عقولهم عن الحق وعبادتهم الأصنام التي لا تضر ولا تنفع واعتقادهم بها بأنها تشفع لهم عند

---

(١) الفرقان ١٧ - ١٨.

(٢) يونس ١٨.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير الجزء الثاني، ص ٢٠.

الله. وأنهم قد تمادوا في ذلك فسقطوا بالاضافة الى ضلالهم في مهانات عقلية وسخافات مسلكية، وجعلوا لها، وهي لا تعلم، نصيباً من الرزق تقرّباً إليها ليصرف الى التنسّك والى السدنة، كما جعلوا الله نصيباً يصرفونه الى المساكين والى الضيفان. ولكنهم كانوا كما روى عليٌّ ابن أبي طلحة والعوفيّ عن ابن عباس، يُحصون نصيب الأوثان من الحرث والثمر أو أي شيء آخر ويحفظونه، وإن سقط منه شيء فيما جعلوه لله ردّوه الى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإنْ سقط شيء من الحرث أو الثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير، ولم يردّوه الى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمّي للوثن تركوه للوثن..[1] يقول الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[2].

ولا يكتفون بالتلبّس بمثل هذا التصرف بل يجعلون لله تعالى البنات ويعتبرون الملائكة بنات الله وهو ما كانت تقوله خزاعة وكنانة[3]، فوقعوا في خطيئتين كبيرتين: الأولى نسبة الولد الى الله ثم تخصيصه بأن يكون الولد المنسوب اليه ـ تعالى الله عن ذلك ـ أنثى، بينما كانوا هم إذا بشر أحدهم بولادة أنثى له تعيّر منها وتوارى عن أنظار الناس من سوء ما بشّر به، وآحتار ماذا يفعل، أيمسكه على هون يعيش فيه (أبد الدهر)، أم يدسه في التراب ويئده ليموت ويتخفف نهائياً من عاره وعيبه. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون. وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسْوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيُمْسِكُه على هُوْنٍ أم يَدُسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون

---

(١) تفسير القاسمي المجلد الرابع ص ٧٣٠.

(٢) الأنعام ١٣٦.

(٣) تفسير الفخر الرازي الجزء العشرون ص [illegible]

للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾[1].

وكثيراً ما كان فساد تفكيرهم يُزيّن لهم قتل أولادهم فيئدونهم خشية العار تارة وخوفاً من الفقر أخرى. وقد لعبت الشياطين في ذلك دوراً خطيراً حتى لبست عليهم دينهم وخلطت عليهم فيه الحق بالباطل والخير بالشر يقول الله تعالى: ﴿وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قَتْلَ أولادِهم شُرَكاؤهم لِيُرْدوهم وَلِيُلْبِسوا عليهم دينهم﴾[2] ويقول ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين﴾[3].

**وأدهم البنات:**

وقد روى عن قيْس بن عاصم أنه قال: «يا رسول الله إني واريْت ثماني بنات في الجاهلية» فقال عليه السلام: «اعتق عن كل واحدة منهن رقبة». فقال يا نبي الله إني ذو إبل، فقال: «اهد عن كل واحدة منهن هدياً» وروي ان رجلاً قال يا رسول الله ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كان لي في الجاهلية آبنة فأمرت آمرأتي أن تزيّنها فاخرجتها إليّ فانتهيت بها إلى وادٍ بعيد القعر فالقيتها فيه. فقالت: يا أبت قتلتني. فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء. فقال عليه السلام: «ما كان في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما كان في الاسلام يهدمه الاستغفار».

ولقد كانت أساليب العرب في قتل بناتهم في جاهليتهم مختلفة، فكان منهم من يئدهن فيحفر الحفيرة ويدفنها فيها الى أن تموت، وكان منهم من يأخذها الى شاهق فيرميها منه، وكان منهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها، يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفاً من الفقر والفاقه.

ولقد كان أشد خصال الجاهليين سوءاً عبادة الأوثان واتخاذها شفعاء لهم عند الله بالاضافة الى ما ذكرنا مما ساقه الله من خصالهم..

---

(١) النحل ٥٧ ـ ٦٠.

(٢) الأنعام ١٣٧.

(٣) الأنعام ١٤٠.

الوثن والصنم:

ولقد كان من مظاهر وثنيتهم آتخاذ الصنم وعبادته. وهو ما كان مصنوعاً على شكل إنسان من معدن أو خشب. أو اتخاذ الوثن وعبادته، وهو ما كان على شكل إنسان منحوت من حجر. ومنهم من كان يعبد النُصُب. وهو ما قُدَّ من صخر ولم يعط صورة إنسان أو غير انسان، ولكنّه آعتبر مقدساً في نظر القبيلة وأجرت عليه طقوساً تعبّديّة. وتصوّرت بأن له ارتباطاً بعالم السماء.

## رسوخ الوثنية قبل البعثة:

وقد بعث الله تعالى محمداً ﷺ، وبقايا الوثنية هذه مترسّخة في عقول العرب ونفوسهم، ومتركزة في حياتهم الاجتماعية، يخلعون على الوثن والصنم من المعاني الدينية والمعتقدات ما هو مُبْهم وعجيب، وما يحلو لهم من صور القداسة وهالات التعظيم، وإنهم ليرفضون أي شيء في هذا السبيل لا يتفق مع ما كان عليه آباؤهم ويهزؤون به وينعتونه بما يشاؤون مما يجعله غريباً وأمراً ممقوتاً. يقول الله تعالى مصوّراً جانباً من سلوكهم عندما بلغتهم دعوة محمد ﷺ: ﴿صۤ، والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عِزّة وشِقاق. كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن فنادَوْا ولاتَ حين مَناص. وعجبوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب أجعَل الآلهة إلاهاً واحداً إنَّ هذا لشيء عجاب﴾[1] ثم يعرض في سياق آستنكاري استفهامهم ثم يخزيهم بردّ ما حق فيقول: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شكٍّ من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾[2] ويقول: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾[3].

---

(١) ص ١ ـ ٥.
(٢) ص ـ ٨ ـ ١٠.
(٣) القمر ٢٥ ـ ٢٦

## تعدّد الأصنام والآلهة:

ولقد كان للعرب في جاهليتهم أصنام وآلهة كثيرة يعبدونها من دون الله. وقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم وصدّهم عن رؤية الحق وسبيل الهدى، وصرفهم عن الخط المستقيم، حتى أنه لم يكن في قريش رجل إلا وله في بيته في مكة صنم يعظمه ويعبده. وكانوا يصنعون آلهتهم مما تيسّر لهم من كل شيء حتى أنهم كانوا ليصنعونها أحياناً من العَجْوة ثم لا يتحرّجون أن يأكلوها إذا عضّهم الجوع. وقد روى الواقدي أنه لما كان يوم الفتح نادى منادي رسول الله: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَدَعَنَّ في بيته صنماً إلا كسره، فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام » وقد روى جُبَيْر بن مطعم أنه كان يرى قبل المناداة هذه الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها الى بيوتهم. وما من رجل إلا وفي بيته صنم إذا دخل يمسحه واذا خرج يمسحه تبركاً به »[1].

## من أبرز آلهة العرب:

وكان من أبرز آلهة العرب وأصنامهم قبل الإسلام وبعد ظهوره بقليل « هُبَل » كان مقرّه الكعبة في مكة المكرّمة، يحج اليه من شاء منهم من كل فج عميق. وكان مصنوعاً من العقيق على صورة إنسان قد كسرت ذراعه، فأبدله القرشيون بها ذراعاً من ذهب، ويقال إن عمرو بن لحي قد جلبه معه من « هِيت » من أرض الجزيرة، وكان من عادة العرب أن الرجل منهم إذا عاد من سفر بدأ به قبل أهله، وبعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده. وكانت له خزانة للقُرْبان. وكان قربانه عظيماً يصل أحياناً الى مئة بعير. كما كان له حاجب. و« هُبَل » هذا هو الذي صاح باسمه أبو سفيان بن حرب معظماً له يوم أحد قائلاً عقب انتهاء المعركة لصالح قريش: « أعلُ هبل » وردّ عليه عمر بن الخطاب بتوجيه من رسول الله ﷺ « الله أعلى وأجلّ »[2].

---

(١) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول ص ١٢٥.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون ص ١٨٧.

## أصنام أخرى:

وكان للعرب غير «هُبَل» أصنام كثيرة أخرى منها: «إساف» وكان قائماً على الصفا. و«نائلة» وكان قائماً على «المَرْوة» وقد روي أنّ قصيّاً نقلهما من مكانهما فجعل أحدهما لصيق الكعبة والآخر موضع زمزم؛ فكان الناس ينحرون عندهما ذبائحهم.

وكان لهم «الخُلَصَة» منصوبة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويذبحون لها. كما كان لهم «مناة» مركّزة على ساحل البحر مما يلي قديداً، تعظمها الأوس والخزرج وغسّان من الأزد[1] هذا بالنسبة الى قريش وبعض القبائل الأخرى. أما بالنسبة الى بني ثقيف فقد ظلّت «اللات» في الطائف كعبة أنظارهم وملتقى قلوبهم يعظمونها حتى بعث رسول الله ﷺ، فلما فتح الطائف أرسل المغيرة بن شعبة إليها آمراً اياه بهدمها.

وكانت «العزّى» بوادٍ من نخلة الشاميّة حتى قطعها خالد بن الوليد بأمر من رسول الله ﷺ. وكانت لكفار قريش شجرة عظيمة خضراء يقال لها «ذات أنواط» منصوبة في الطريق الى حُنَيْن كما كان «ذو الكفَّيْن» للدّوْسيين و«سواع» لهُذَيْل وغير ذلك كثير[2].

روى ابن عباس فقال: «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، وحول الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً قد شدّها إبليس بالرصاص. فطاف بها رسول الله ﷺ على راحلته وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» ويشير إليها فما منها صنم أشار الى وجهه إلا وقع على دُبْره، ولا أشار الى دُبْره إلا وقع على وجهه حتى وقعت كلها» وقال ابن اسحاق: «لما صلى النبي ﷺ الظهر يوم الفتح

---

(١) تاريخ مكة للأزرقي الجزء الأول ص ١٢٥.
(٢) تاريخ مكة للأزرقي الجزء الأول ص ١٢٥.

أمر بالأصنام التي حول الكعبة كلها فجمعت ثم حرقت بالنار وكسرت»[1]

**العرب موحدون قبل جاهليتهم:**

وقد ذهب أهل الأخبار الى الرواية بأن العرب الأوائل كانوا قبل جاهليتهم على ملّة إبراهيم يعظمون إلـهاً واحداً لا إله إلا هو ويعتقدون به ويحجّون الى بيته العتيق، وأنهم بقوا على ذلك دهوراً مديدة حتى انسلخوا منه مع تقلب الأيام ونسوه وعبدوا ما استحبوا من الأصنام والأوثان وتخلوا عن ملّة آبائهم ابراهيم واسماعيل.

ويشكك في هذه الرواية الدكتور جواد علي لعدم ورود شيء من الوثائق في ذلك بل لورود النصوص على النقيض، تذكر أسماء أصنام ولا تذكر شيئاً مما يعبّر عن قيام عقيدة التوحيد منهم.

والغريب أن بعض علماء الغرب أمثال ويليم شميد وبعض علماء اللاهوت، يذهبون الى ترجيح هذه الرواية والقول بها في حين يشكك بها الدكتور جواد علي وهو يعلم علم اليقين ان اسماعيل عليه السلام قد نشأ في مكة وعاش فيها مع والدته هاجر وانه تزوج من قبيلة جرهم. وهو يقينا أحد رسل الله الذين ذكرهم في القرآن الكريم ومجّدهم بقوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾.

وإذا كان اسماعيل قد نشأ في مكة وكان رسولاً نبياً. وكان عند ربه مرضياً، فهو قطعاً موحد. وذريته في الغالب موحدون. ومحيطه دونما ريب قد تأثر به - وبمعتقداته. وإن أكبر دليل على ذلك هو بقاء ارتباط العرب حتى بعد وثنيتهم بالكعبة بيت الله الحرام وتعظيمهم لها وطوافهم بها وتعظيمهم للحجر الأسود.

---

(١) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول ص ١٢٥.

### فعل عمرو بن لُحي:

بل إنه هو وغيره من المؤرخين يكادون يلتقون على أن عمرو بن لُحي هو أول من غيّر دين اسماعيل وانحرف به عن خط الوحدانية، واتخذ الأوثان. ويروى عنه انه كان متميزاً ونافذ السلطة، ثبت حكمه على مكة وأهلها بعد أن انتزعه من «جرهم» وآل اليه أمر الطاعة فيهم يأتمرون بأمره ويتبعون ما يضعه لهم، وقد نسبت روايات الرواة إليه وضع «اللات» و«إساف» و«نائلة» كما قيل إنه بفضل جاهه العريض وسلطانه الكبير بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغه عربيّ قبله ولا بعده في الجاهلية...

### عبادات أخرى من ظواهر الطبيعة:

هذا وقد ألّه بعض العرب في الجاهلية الظواهر الطبيعية مثل الشمس والقمر والنجوم لتوهّمهم انها ذات قوى روحية عظيمة تؤثر في حياتهم ايجاباً وسلباً، عطاءً وحرماناً، إساءة وإحساناً. وقد ثبت ان الشمس والقمر كانا أول الأجرام السماوية التي استأثرت بأنظار البشر وأفكارهم وعواطفهم لما للشمس من أثر فعّال في الأرض والزرع وحياة الإنسان، ولما للقمر من فضل بما يبعثه في ظلمة الليل من نور يهتدون به. وقد تعبّد البعض منهم للشمس وسمّوا أولادهم بأسماء العبودية لها، فقالوا «عبد شمس» كما قالوا «عبد اللات» و«عبد الكعبة».

ولقد نقل لنا «القرآن» الكريم خبر بعض من أولئك العرب الذين عبدوا الشمس فقال عن أهل سبأ وملكتهم بلقيس على لسان الهدهد الذي بعث سليمان إليها ليتسقّط له بعض أخبارها: ﴿أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، انّي وجدت آمرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ (1).

---

(1) النمل ٢٢ - ٢٤

وقد سخف الله تعالى أمر هؤلاء وأمثالهم من الأقوام الذين أسفت بهم عقولهم الى مثل هذا الدرك. وأوضح جازماً أن كل ما في الكون من أشياء والشمس والقمر والجبال والشجر والدواب يسجد تعظيماً لله وتكريماً له فقال: ﴿ألم تـرَ أنّ الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابّ وكثير من الناس﴾ [١] وقال ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ [٢] فجعل السجود له وحده ونهى عن السجود لسواه أيـاً كان حجمه وأثره وفضله على الناس والحياة..

ولعلّه من أجل ألاّ ينزلق المسلمون الى مثل ما آنزلق إليه بعض من سبقهم من تعظيم الشمس أو عبادتها نهى رسول الله ﷺ عن صلاة التطوع عند طلوع الشمس وعند غروبها.

## تنوّع الشرك الجاهلي:

لقد تمادى الجاهليون في وثنيّتهم وأساليب شركهم بالله. فكان منهم من عبد الأصنام المصنوعة من الحجـارة أو الخشب أو المعادن أو غيرها مما لا روح له كما رأينا سابقاً، ومنهم من عبد الشمس والقمر أو النجوم أو الشجر أو الدواب. ومنهم من جَعل الجنّ شركاء لله أو جعل الملائكة شركاء أو بنات له. وفي هذا يقول الله تعالى مخبراً عن بعض عبادتهم: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وَخَلَقَهُم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عمّا يصفون﴾ [٣] وعبادتهم هذه للجنّ كانت لطاعتهم لهم ولأوامرهم.وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿إنْ يَدْعون من دونه إلا إناثاً وإنْ يدْعون إلاّ شيطاناً مريداً لعنه الله وقال لأتّخذنّ من عبادك نصيباً مفروضاً

(١) الحج ١٨.

(٢) فصلت ٣٧.

(٣) الأنعام ١٠٠.

ولأُضلّنهم ولأمنينهم ولآمرنّهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرن خلق الله ومن يتّخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ (١).

ولقد تكرر في القرآن الكريم مثل هذا الإخبار عن عبادة الناس للشياطين أو الجن. فيقول الله تعالى: ﴿ألَمْ أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ (٢) ويقول على ألسنة الملائكة وهم يتبرّؤون من عبادة الناس ﴿سبحانك أنت وَلِيّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾ (٣).

وعن ابن عباس أنه قال: «كان الزنادقة يقولون إنّ الله وإبليس أخوان؛ فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور» (٤).

ويشابه هذا القول ما تقوله المجوس، فهم يرون أن كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من «يزدان»، وجميع ما فيه من الشرور فهو من «أهرمن» وهو المسمى بإبليس في شرعنا.

ولعلّه قد تسرّب إلى العرب من المجوس الذين كانت تصلهم بالعرب قديماً تجارات وعلاقات سياسية وعلاقات جوار. ولا نستطيع أن ننسى ما لهذه الصلات من تأثير في الأخذ والعطاء. وفي الحمل على التقليد والاقتباس.

## فلسفة العرب لعبادتهم الأصنام:

ولقد فلسف العرب عبادتهم للأصنام فاعتبروها هي والأوثان أولياء وشفعاء لهم عند الله تقرّبهم إليه زلفى. ومن أجل هذه الفلسفة المغلوطة الضالّة عن جادة

---

(١) النساء ١١٧ - ١١٩.

(٢) يس ٦٠ - ٦١.

(٣) سبأ ٤١.

(٤) تفسير القاسمي المجلد الرابع ٦٥٩.

الصواب « تكرر الحديث » في الكتاب الكريم عن الشفاعة والشفعاء، وسلط الضوء عليهم وعلى عجزهم، لبيان فراغ مهمتهم وبطلانها وفسادها إلاَّ في حال أن يكون الله تعالى هو الذي قد أذن لهم فيها ـ يقول الله تعالى: ﴿والذين آتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ (١).

على أن ما عبده المشركون من دون الله واتخذوه أولياء، إما أن يكون مما يعقل أو مما لا يعقل. وعبادتهم لما يعقل كانت ظاهرة بعبادة بعضهم للمسيح أو للعُزَيْر أو للملائكة. بل أن كثيراً منهم كان يعبد الشمس والقمر والنجوم وهو يعتقد أنها أحياء عاقلة وناطقة. وأما عبادتهم لما لا يعقل ولما ليس موصوفاً بالحياة والارادة كالأصنام والأوثان، فهو معلل أيضاً بأنهم كانوا يعتقدون أنها تماثيل الكواكب، أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين خلوا من قبل، ويقصدون من عبادتهم التوجّه إلى من كانت الأصنام تماثيل أو صوراً لهم.

وهم كأنهم كانوا يرون أن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر، وان اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من خلق الله تعالى مثل الكواكب والأرواح السماوية. ثم هي تشتغل بعبادة الإله الأكبر. وأنهم هم حينما يعبدون خلق الله الأعظم المشار اليهم فإنهم يقربونهم الى الله زلفى ويشفعون لهم عنده.

ولقد أخبر الله تعالى بأن مقاصد هؤلاء في عبادتهم ضالّة، ولا تحقق لهم ما ينشدون، لأن الذين يعبدون أياً كانوا لا ينفعونهم ولا يضرون فقال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. قل أتنبّئون الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (٢).

---

(١) الزمر ٣.

(٢) يونس ١٨.

ولقد وصل الحال ببعضهم أن عبد أرواح أصحاب القبور الذين يئسوا من الدنيا وربّما يئسوا أيضاً من الآخرة بعد أن ماتوا ويتقرّبون إليها. ولقد ربط بعض العلماء بين هذه العبادة الوثنية وبين ما نهى عنه الرسول ﷺ من تَعْلية القبور وتَسْنيمها والتباهي ببنائها. وما نهى عنه أيضاً من آتخاذ القبور مساجد ومواضع للصلاة[1]، ولعلّ من أجل هذا كان فئات من الناس يتخذون بعض القبور مزارات لهم لأنها لرجال دين فيهم أو لسادات قبائل، ولاذ بعضهم بها كما كان من أمر ضريح «تميم بن مر» وكالذي كان من أمر «اللات» إذْ قالوا إنه كان في الأصل رجلاً، ولما مات اتخذ الناس قبره معبداً ثم حُوِّل إلى صنم يُعبد.

«قال» الفخر الرازي في تفسيره (الآية المذكورة آنفاً): «إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على آعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله..»[2].

ويؤكد هذا القول خطأ ما هو شائع بين الناس اليوم كما كان لدى البعض في الماضي، وبطلانه، ليتذكر من له عقل حازم وقلب واع ويتفادى السقوط فيما سقط فيه المتعجلون والغافلون.

### الأصنام رمز للقبيلة:

يقول ابن الكلبي: «واشتهر العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً. ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت العتيق.. فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربّاً وجعل

---

(١) تاريخ العرب المفصل جواد علي الجزء السادس ص ٤٨.

(٢) الجزء السابع عشر ص ٦٣.

الثلاث الباقية أثافي لقدره فإذا آرتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها »[1].

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبّد لها، فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة. قال (آبن دريد) « الحارث بن قيس هو الذي كان إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم﴾[2].

وهكذا فإنه لم يكن مفروضاً أن يكون الصنم كبيراً أو منحوتاً نحتاً فنيّاً، بل كثيراً ما كان يكون تماثيل صغيرة أو حجارة غير منسقة ولا صناعة فيها مطلقاً. ولقد روي أن « أحمر بن سواء بن عدى السَّدوسي » كان له صنم يعبده فعمد إليه فألقاه في بئر، ثم جاء إلى الرسول ﷺ فأسلم[3].

ولقد كان بعض العرب ينظرون إلى أصنامهم على أنها رموز لهم تشير اليهم وتعرّف بهم، فضلاً عن عبادتهم لها من دون الله. ولذلك كانوا يحملونها معهم في أسفارهم وحروبهم ويستميتون في الدفاع عنها كما يستميتون في الدفاع عن أنفسهم، وكانوا يرون وقوعها في يد العدو هو كوقوع القبيلة بأسرها في يده. ولذلك فقد كانوا يولونها كل عنايتهم ورعايتهم حال أسفارهم وتنقّلاتهم، ويضعونها في « سَمْنها » وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر ويصبح لها في نفوسهم قدسيّة خاصة بسبب ذلك.

ولم يكن للفرد في بعض الأعراف القبلية حق آختيار الصنم الذي يشاء، كما لم تكن له حريّة العبادة كما يقال في هذا العصر، بل كان عليه أن يلتزم بما آلتزم به

---

(١) الأصنام (٣٣).

(٢) الجاثية ٢٣.

(٣) للمراجعة في المفصل في تاريخ العرب الجزء السادس ص ٦٧.

آباؤه من قبل من العبادة للصنم التي هي ميراث يتوارثه الأبناء عن الآباء في عرفهم وفي دينهم. وفضلاً عن أن الصنم هو رمز القبيلة في بعض الأعراف، فإنه أيضاً حبّة العقد وقطب الرحى، والرابطة التي تصل بين الأفراد. والخروج عليه خروج على مشيئة القبيلة، وآنسلاخٌ من كيانها. ومع ذلك كله فقد كان للسادة في القبيلة في بعض الاحيان الخروج على هذه القاعدة وتغيير أصنامها [1].

### حـ كيفية نشوء هذه العبادة:

ولقد أشرنا فيما سبق (اشارات) الى كيفية نشوء عبادة الأصنام في العرب الجاهليين (دون أن نركّز ذلك في مبحث خاص) (ولذلك) فإنّا نؤكد هنا بأن أكثر الرواة يكادون يلتقون على أن الناس في الجاهلية لم يتعبدوا للأصنام، ولم يكونوا ينظرون اليها بالذات على أنها تستحق العبادة. ولكنهم نحتوها وجعلوها صورة أو رمزاً تذكرهم بالإله أو بالأشخاص الصالحين، وأنهم مع طول الزمن نسوا هذه الحقيقة وانجرفوا مع الظاهر فاتخذوها وعبدوها من دون الله.

ويستنتج بعض المؤرخين من هذا أنه يحتمل أن يكونوا في الغابر يعتقدون بالمسخ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائله من أنهما « رجل وامرأة من جرهم وأن إسافاً وقع على نائلة في الكعبة فمسخا » [2] أو يعتقدون بالتقمص كالذي روَوْه عن صنم « اللات » من أنه كان إنساناً من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو بن لحي: « لم يمت ولكن دخل الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها وأنَ يبنوا عليها بنياناً يسمّى اللات » [3] أو كالذي رووه عن « ودّ، وسُواع، ويغوث، ويعوق ونسر » من أنها « كانت نفراً من بني آدم صالحين وكان لهم أتباع يعتقدون بهم. فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا

---

(1) للمراجعة في المفصل في تاريخ العرب جواد علي الجزء السادس ص ٦٥.
(2) الروض الأنف الجزء الأول ص ٦٤.
(3) البلدان، البلاذري، الجزء السابع ص ٣١٠.

ذكرناهم. فصوّروهم. فلما ماتوا ودبّ إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[1].

ولقد سوّغت مثل هذه العقائد للرواة والقصاصين أن ينسجوا العديد من الصور والأخبار والقصص عن كمون أرواح في تلك الأصنام تتحدث للناس وتوحي إليهم وتأمرهم وتنهاهم. ولعلّ هذه الأخبار هي التي حدت ببعض العرب عندما أمرهم النبي ﷺ بهدم أصنامهم بالتلكّؤ عن ذلك خوفاً من خروج الجن من أجوافها. بل لقد روى البعض بأنه بالفعل قد خرج الجنّ من بعضها حين قام بعض المسلمين بهدمها[2].

وتروي بعض الأخبار أن « سواعاً » كان ابنا لشيث، و« يغوث » كان ابنا لسواع وكذلك يعوق ونسر.

على أن ابن الكلبي يرى أن نسل اسماعيل عليه السلام لما تكاثر ضاقت بهم مكة، فنشأت بينهم العداوات، وأفضت بهم الى خصومات وحروب، فأخرج بعضهم بعضاً. فضربوا في الأرض التماساً للرزق. وكان كلما رحل منهم راحل حمل معه حجراً من أرض الحرم تعظيماً للحرم فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمّناً بها وحباً بالحرم وتعظيماً له. ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه وعبدوا ما استحبوا واستبدلوا بعبادة إله ابراهيم واسماعيل عبادة الأوثان...

وكان أول من غير دين اسماعيل فنصب الأوثان وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو ابو خزاعة.

وفي منشأ عبادة الأصنام في العرب الجاهليين قصص وأخبار أخرى. ولكنها في

---

(١) تفسير الطبري الجزء ٢٩ ص ٦٢.

(٢) المفصل في الجزء ٦ ص ٦٩.

الغالب تلتقي حول عمرو بن لحي الذي كان أول من جلبها الى مكة. وأيّاً ما كـان الأمر فإن العرب الذين عبدوا الأصنام واتخذوها لهم شفعاء عند الله، وإن كانوا قد نسجوا حولها العديد من القصص والأخبار التي تعبّر عن انبهارهم بما كان يصدر عن سدنتها أخوان الأبالسة والجن، إلا أنهم ظلوا يعترفون بأن خالق السماوات والأرض وخالقهم هو الله تعالى، وأنه هو الذي ينزل المطـر ويحيي الأرض بعد موتها. ولذلك فقد كانوا يقسمون به ويتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والمصائب.

والقرآن الكريم حافل بالإشارة الى هذه المعاني حيث يقول: ﴿ولئن سألتهم مـن خلقهم ليقولُنّ الله فأنى يؤفكون﴾ (١) ويقول: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهُن العزيز العليم﴾ (٢) ويقول: ﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ (٣) ويقول ﴿واقسموا بالله جهد أيْمانهم لئـن جـاءَتْهُـم آيـةٌ لَيُـؤْمِنُـنَّ بها﴾ (٤).

ولكن هذه الآيات وغيرها التي تثبت أصول الاعتراف بالله في نفوس وقلوب العرب الجاهليين تثبت في غالبها في الوقت نفسه ضلالهم وشركهم، وهو ما استحقوا لأجله المقت والسخط واللعنة.

وليس المطلوب في الإنسان أن يعرف الله ويقرّ بوجوده ويعترف له بالخلق والرزق وكل مجالات القدرة فحسب، فقد عرف ذلك من قبل إبليس ومن لف لفّه من إخوانه وجنوده أجمعين، بل المطلوب أن تتحقق مع ذلك كله راحة القلب

---

(١) الزخرف ٨٧

(٢) الزخرف ٩

(٣) العنكبوت ٦٣

(٤) الأنعام ١٠٩

إليه سبحانه وتعالى ؛ فيطمئن بذكره ويسعد بمراقبته ويرتاح لمناجاته ومخاطبته وحده بكل خلوص وصفاء وتنزه، لا يشرك معه مخلوقاً أيـاً كان ولا شيئاً مما يتصل به. لأن الله هو وحده المعبود، ووحده هو الخالق الذي لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وبيده الخير وهو على كل شيء قدير هو الباريء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

# الفصل الثاني

# موقف الرسول ﷺ من الأوثان قبل البعثة

١ ـ نشأته وكرامته

٢ ـ سلوكه الحميد وبراءته من السجود لصنم

٣ ـ تحبيب الخلاء إليه

٤ ـ محمد الأمين

## نشأته وكرامته:

ولد الرسول ﷺ في مكة في دار ابن يوسفَ من شِعْب بني هاشم يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول. وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر وهو قرشي على الصحيح وينتهي نسبه الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام.

وقد نشأ ﷺ في عشيرته وبين قومه بمكة، فكان منذ نعومة أظفاره موضع إعجابهم واهتمامهم في ولادته ونباهته واحتراسه، وفي ما كان يَحُفُّ بنَشْأته ويصحبها من عجائب وغرائب مُلْفِتةٍ للنظر والفكر. ولقد روى ان أبا طالب كان يقرّب الى الصبيان تصبيحهم أول البُكْرة فيجلسون وينهبون ويكفّ رسول الله ﷺ يده لا ينهب معهم، فلما رأى ذلك أبو طالب منه عزل له طعامه على حدة. وكان يصبح ﷺ في أكثر أيامه فيأتي زمزم فيشرب منها شَرْبة، فربما عُرض عليه الغداء فيقول: «لا أريده أنا شبعان»[1].

ولقد أعجب به جده عبد المطلب من قبل فقال: «إن لابني هذا لشأناً» وحرصت حليمة السعدية التي ارضعته على أن يبقى عندها فقالت: «فلم يزل الله يرينا البركة نتعرّفها حتى بلغ السنتين، فكان يشِبُّ شباباً لا تشبه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جَفْراً أي «غليظاً» فقدمنا به على أمه ونحن أضنَّ

---

(١) الامتاع للمقريزي الجزء الأول ص ٨.

شيء به مما رأينا فيه من البركة. فلما رأته أمه قلت لها: دَعِينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت نعم»[1].

ولقد احتضنه عمه أبو طالب بعد موت أمه وجده، فكان يحبه حبّاً شديداً لا يحبه ولده. وكان لا ينام إلا الى جنبه ويخرج فيخرج معه. وكان يخصه بالطعام. وكان اذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا. وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا. ولذلك كان أبو طالب يقول له وهو صغير إنك لمبارك[2]. ومن أجل ذلك كان أبو طالب يرق له كل الرِقّة ويقرّ به إليه ويكرّمه اكراماً يزيد احياناً على إكرامه لأولاده.

## سلوكه الحميد وبراءته من السجود لصنم:

ولقد كان منذ يفاعته معروفاً بنبل الصفات وجميل الشمائل واستقامة الخلق، يخالط قومه ويعاشرهم، ويأخذ معهم قسطه من الحياة العامة على اختلاف صورها ومقتضياتها. بيد أنه كان له سلوكه الخاص به؛ فلم يكن يجاريهم في كل شيء وبخاصة في لهوهم وعبثهم وشرابهم وفسادهم حتى ولا في عبادتهم.

لقد شبّ بفضل الله مطهّراً من عيوب الجاهلية. مبرّأ من أدناسها[3]. وكما قال ابن اسحاق «يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزّهاً وتكرّماً حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة. وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير المجلد الاول ص ٢٢٧

(٢) السيرة النبوية لابن كثير المجلد الأول ص ٢٤٢.

(٣) سحط النجوم العدالي ١/ ٢٧١.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٢٥٠.

لي يحدّث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلّنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فإني لأقبل معهم كذلك وأُدبر إذْ لكمني لاكم ما أراه لكمةً وجيعة ثم قال: شدّ عليك إزارك. قال فأخذته فشددته علي. ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي».

وقد قال القسطلاّني: «إنه لما ترعرع ﷺ، كان يخرج الى الصبيان وهم يلعبون فيجتنبهم. وأنه لما اكتمل شغف الوحدة المشفوعة بالتحنّث الفطري البعيد عن أيّة شائبة من شوائب الوثنية. وقد روى البخاري أنه ﷺ قال: «ما هَمَمْتُ بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين». وروى ان احدى هاتين المرّتين كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش. فقال لصاحبه اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة، وكان بها عرس فيها لهو وزَمْر. فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقي عليه النوم، فنام حتى ضربته الشمس، عصمة من الله. وفي المرة الآخرة قال لصاحبه مثل ذلك، فألقي عليه النوم كما ألقي عليه في المرّة الأولى»[1].

وهكذا فقد نشأ بعيداً عما كان عليه قومه من تعظيم الأوثان والسجود لها. فلم يُرْوَ عنه أنه سجد لصنم قط لأن ذلك كان قد بُغِّض إليه منذ طفولته[2]. وقد روي أنه لما كان في تجارة لخديجة في الشام وقع بينه وبين رجل اختلاف في شيء. فقال له الرجل إحلف باللات والعزّى فقال له الرسول: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمُرّ فأعرض عنهما»[3].

وقد روى ابن عباس قال: «حدثتني أم أيمن قالت: كانت «بُوانه» صنماً تحضره قريش تعظّمه وتُنسك له النسائك، ويحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده

---

(١) السهيلي ١/١١٢

(٢) طبقات ابن سعد ١/١٣٨

(٣) مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص ٤٤.

يوماً الى الليل. وذلك يوماً في السنة. وكان أبو طالب يحضر مع قومه. وكان يكلّم رسول الله ﷺ حتى يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى ذلك، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه. ورأيت عمّاته غضبن عليه يومئذٍ أشدّ الغضب. وجَعَلْنَ يقُلْن إنا لنخاف عليك مما تصنع من آجتناب آلهتنا. وجعلن يقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تُكَثِّر لهم جمعاً؟! قالت فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع الينا مرعوباً فزعاً. فقلن له، أيْ عماته، ما دهاك؟! قال: «إني لأخشى أن يكون بي لَمَمٌ (أي طرف جنون) فقلن ما كان الله لِيَبْتَليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك. فما الذي رأيت؟. قال: «إني كلما دَنَوْت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: «وراءك!! «أي ارجع وراءك» يا محمد لا تمسه» قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ»[1].

وهذه القصة وغيرها من امثالها تثبت أنه ﷺ كان يرفض آرتياد أماكن اللهو والعبادة عند قومه، وأنه لم يسجد لصنم قط، وأنه لم يقرب وثناً. فقد روى الحافظ البيهقي بسنده عن زيد بن حارثه قال: «كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا. فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مَسَحْت به. فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسّه» فقال زيد فطفنا. فقلت في نفسي لأمَسَّنّه حتى أنظر ما يكون. فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ» فقال البيهقي زاد غيره قال زيد: «فوالذي اكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزله عليه».

ولقد ثبت أن الرسول ﷺ كما رأينا من قبل، كانت ترافقه عناية الله في كل حال، فتيسّر له ما ترضاه وتصرفه عما تكره وتأباه وتعصمه من الانزلاق إليه. وليس هذا بمستغرب. بل المستغرب ألاّ يكون. لأنه ﷺ لو سلك شعاب قومه ودلف معهم الى نواديهم المنكرة وعاشرهم في لهوهم وعبثهم وشاركهم متعهم

---

(١) طبقات ابن سعد ١٣٩/١ - ١٤٠.

وبرفهم وفسادهم. لأصابه الكثير مما يصيب المنغمسين فيها والغارقين في بحرانها. ولشاب خُلقه وطبعه وفكره من لَوَثات الجاهلية وعيوبها ومثالبها ما لا يتفق مع مقام النبوة ولا يساعد على تأهيله ليكون في مقام القيادة والإمامة لقومه، فضلاً عن ان يكون في مستوى الإمامة للناس أجمعين.

فرسول الله وقد اختاره الله أزلاً لهذه المهمة الشريفة، واصطفاه من قومه لمقامها السامي الرفيع، لا بدّ من أن يعدّه لها جسماً وطبعاً وسلوكاً وفكراً وقلباً وروحاً. كما لا بدّ من أن يهيّء له الأجواء كافة لينجح في مهمّته ويوفّق في رسالته. وقد قال الله تبارك وتعالى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ولقد آصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾(١). ويقول: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾(٢) ويقول: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله قويٌّ عزيز يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾(٣).

## تحبيب الخلاء إليه:

ولقد دفع به سوء خصال قومه الى البعد عنهم والرغبة في الانفراد عنهم وحب الخلاء. قال ابن كثير: «انما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما كان يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام. وقد قويت محبته للخلوة عند مقاربته إيحاء الله اليه»(٤).

ولعلّ هذا كان أحد الأسباب التي هيّأته للتوجّه في أواخر الثلاثينات من عمره الى آرتغاب الاختلاء للتحنث والتبرّر منفرداً في غار حراء ليالي تبلغ شهراً أحياناً في كل سنة بعيداً عن عشيرته وقومه. قال الخطابي رحمه الله: «ولقد لطف

---

(١) البقرة ١٣٠.

(٢) الانعام ١٢٤.

(٣) الحج. ٧٤ - ٧٥.

(٤) السيرة النبوية ٣٨٩/١.

الله تعالى بنبيّه محمد ﷺ في بادية أمره فحبّب إليه الخلوة. وقطعه عن مخالطة البشر ليتناسى المألوف من عاداتهم ويستمر على هجران ما لا يُحْمد من أخلاقهم وألزمه شعار التقوى. وأقامه في مقام التعبّد بَيْن يَدَيْه ليخشع قلبه وتلين عريكته لورود الوحي فَيَجِدَ منه مراداً سهلاً ولا يصادفه حَزْناً وَعْراً، فَجُعِلَتْ هذه الأسباب مقدمات لما أرصد له من هذا الشأن ليرتاض بها ويستعدّ لما نُدِبَ إليه ثم جاءه التوفيق والتبشير وأخذه بالقوة الإلهية فَجُبِرَتْ منه النقائص وجُمِعَتْ له الفضائل النبوية»، وقال غيره «من فوائد خلوة نفسه ما ألهمه الله تعالى قبل ظهور الملك له ومخاطبته لما أراد الله تعالى من صروفه عن مُتَعَبَّدات قريش وعُزوب نفسه الشريفة عن قرب أرجاس الأصنام وتَبَرِّيه منها وبُغْضِهِ لها وإقباله على التحنث وهو فعل البر والقُرَب»[1].

محمد الأمين:

ولقد أحبت قريش محمداً وكرّمت فيه خصاله الحميدة وأطلقت عليه وصف «الأمين»، وقد روى محمد بن إسحاق بن يسار قال: «فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة، وكانوا يهمّون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وإنما كانت رضماً [أي حجارة نضد بعضها على بعض من غير ملاط] فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها.... وكان البحر قد رمى بسفينة الى جُدَّة لرجل من تجّار الروم فتحطّمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها... وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها... ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه. فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة... ولما أصبح الوليد غادياً على عمله هدم وهدم الناس معه... ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة...

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الامام محمد يوسف الصالحي الجزء الثاني ص ٢١٩.

ثم بنوها، حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا واعدّوا للقتال. فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة. فَسُمُّوا لَعَقَةَ الدم. ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتناصفوا... وقال أبو أميّة بن المغيرة وكان أسن قريش: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا. فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال ﷺ: «هلمّوا اليّ ثوباً» فاتى به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم آرفعوه جميعاً» ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه»[1].

وهذه القصة تعبّر عمّا كان لرسول الله ﷺ في نفوس قومه من محبة وثقة وإجلال. كما تعكس بوضوح ما كان يتمتع به من خارق الذكاء وعميق الحكمة وثاقب الرأي..

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١/٢٧٩ - ٨٠.

# الفصل الثالث

# موقف الرسول ﷺ من الوثنية بعد البعثة

١ - بدء تخلخل الوثنية

٢ - بداية الوحي

٣ - فترة الوحي

٤ - الأمر بالتبليغ

٥ - الاسلام والكفاية والعلم

٦ - الوثنية عبودية والاسلام حرية

٧ - تسفيهه ﷺ لأحلام العرب وعباداتهم

٨ - الهوى علة هذا الضلال وكل ضلال

٩ - الانذار بسوء المصير

١٠ - دروس في ذلك

١١ - في الوثنية استساغة للأوهام والتبعية لكل مجهول

١٢ - لا هوادة مع الوثنية

١٣ - أمثلة من مواقفه ﷺ

١٤ - أثر التوجيه النبوي في نفوس الصحابة

١٥ - مظاهر الشرك الخفي

بدء تخلخل الوثنية:

لقد ثبت إذاً بما لا لَبْس فيه أنه ﷺ كان يتجافى عن أماكن العبادة التي كان يرتادها قومه، ويأبى مخالطتهم فيها ومشاركتهم، تحوّباً وتبرُّءاً من العبث والاثم...

وقد ذكر ابن كثير أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عَمْرو بن نُفَيْل وعبد الله بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحُوَيْرِث كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه، قد اتخذت قريش ذلك من كل سنة عيداً يأتونه فيه، يعظّمونه وينحرون له الجزور، ثم يأكلون ويشربون الخمر، ويعكفون عليه؛ فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه فأنكروا ذلك وردّوه الى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً فأخذوه فردّوه الى حاله فانقلب. فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا الأمر، فقال عثمان بن الحُوَيْرث ما له قد أكثر التنكّس؟! وعلى أثر ذلك خلا هؤلاء بعضهم ببعض وقالوا: تصادقوا، ولْيَكتُم بعضكم على بعض. وقال أحدهم: «ما قومكم والله على شيء! لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه. ما حجرٌ تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر!؟ يا قوم التمسوا لكم الدين. قال فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم: فأما ورقة فتنصّر وقرأ الكتب حتى علم علماً. وأما عثمان بن الحويرث فسار الى قيصر فتنصّر أيضاً وحسنت منزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فضرب في الأرض حتى بلغ الرّقّة من أرض الجزيرة، فلقي راهباً عالماً فأخبره بالذي يطلب، فقال له الراهب انك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه. ولكن قد

أظلك زمان نبيّ يخرج من بلدك، يبعث بدين الحنيفية. فرجع وفي الطريق قتله لَخَم. وأما عبد الله بن جحش، فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ثم أسلم وهاجر مع من هاجر الى الحبشة، فلما استقرّ فيها تنصّر وفارق الاسلام ومات ثمة نصرانيًا»[1].

ولقد روت كتب السير ذكر أسماء كثيرة من أمثال هؤلاء الذين رفضوا دين الآباء وهجروا ما كانوا عليه من العبادة ونفروا من سخفها ورجسها والتمسوا لأنفسهم عبادة أصح وأسلم[2].

وهذا يفيد أن الوثنية كانت قد بدأت تتخلخل مع مطلع عهد رسالة محمد ﷺ، وأن بصائر الناس قد أخذت بالانفتاح على الحق والخير، مع اطلالة أنوار النبوة، وأن دعاوى الباطل وأحابيله بدأت تفقد شيئاً فشيئاً زخمها وتأثيرها بل جعلت تنكشف على حقيقتها السوداء الكالحة...

## بداية الوحي:

ولقد كانت سيرة الرسول ﷺ وأخلاقه الحميدة تزيده قناعة وتمسكاً بالبعد عن محاور المشركين من قومه، وتضفي عليه هالات المهابة والجلال وتنزله من قلوبهم منزلة المحبة والاكرام.

ولقد كانت للوحي بدايات. فهو لم يهبط عليه جملة واحدة، وبصورة مفاجئة، بل كانت له إرهاصات ومقدمات، فكان يأتيه ابتداءً على شكل رؤيا صادقة. ثم حُبّب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث، وهو التعبّد، الليالي ذوات العدد. وكان يرى العجائب فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سَمُرة قال قال رسول الله ﷺ «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم علي قبل أن أبْعث إني

---

(١) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير بتصرف ٢/ ٣٤٠.

(٢) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير بتصرف ٢/ ٣٣٩.

لأعرفه الآن». كما روى الحافظان البيهقي وأبو نعيم في كتابيهما. «دلائل النبوّة» من حديث يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن عمرو بن شُرَحْبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خَلَوْتُ وحدي سمعتُ نداءً وقد خشيتُ والله أن يكون لهذا أمر فقالت: معاذ الله ما كان ليَفْعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ، ثم ذكرت له خديجة فقالت: يا عتيق اذهب مع محمد الى ورقة. فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ بيده أبو بكر: فقال: انطلق بنا الى ورقة. قال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا اليه فقصا عليه، فقال رسول الله ﷺ «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد!! يا محمد!! فانطلق هارباً في الأرض. فقال له: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم آئتني فأخبرني»[1].

وقال ابن اسحاق: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان داعية، عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته، وآبتدأه بالنبوّة، كان اذا خرج لحاجته أبعد حتى يحسر البيوت عنه ويفضي الى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمرّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال: «السلام عليك يا رسول الله» قال، فيلتفت حَوْله عن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة. فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث. ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاء من كرامة الله وهو بحِرَاءَ في رمضان[2].

ولذلك فقد ورد أنه ﷺ «أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح»[3]. وقد لبث يتلقى مقدمات النبوّة

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١/٣٥٨.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ١/٤٠١.

(٣) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ١٥٩.

وارهاصاتها كما ذكرنا طرفاً منها حتى شارف الأربعين من عمره « وفجأه الحق وهو بغار حراء »[١] أي جاءه بغتة كما قال تعالى ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ ونزل عليه صدر سوره العلق وهو قوله تعالى: ﴿إقرأ بآسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربُّك الأكرم الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فرجع الى أهله يرجف فؤاده مضطرباً فزعاً مما سمع ورأى، والتمس منهم أن يزمّلوه قائلاً « زمّلوني زملوني » فكان ما أراد حتى اذا ذهب عنه الرَّوْع وسُرِّيَ عنه كان مما قال: « إني خشيت على نفسي » وجعل يفضي الى زوجته خديجة بمخاوفه... وقد كان دور زوجته الصالحة عظيماً إذ سكّنت رَوْعه بكلماتها الملهمة التي قالتها له ومنها: « كلاّ واللهِ ما يُخْزيك الله أبداً. إنك لَتَصِلُ الرحم وتَحْمِلِ الكلَّ وتَكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق »[٢]. الى أن قالت « أبشر يا ابن عم وآثْبُتْ فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. وذلك بعدما سمعت من نوادر الأخبار بأن نبياً سيُبعث في هذا الزمان ».

## فترة الوحي:

ثم فتر الوحي فترة طويلة حتى حزن النبي معها حُزْناً شديداً غدا منه يتردّى من رؤوس الجبال. فكلما أراد أن يلقي نفسه تبدّى لـه « جبريل » وقال « يا محمد إنك رسول الله حقاً »[٣].

وقد أخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدّث عن هذه الفترة التي روى أنها طالت سنتين وثلاثاً وأن أصحها حسبما نقله الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ما كان في دائرة الأشهر، وقال غيره في إطار الأيام[٤]. « ثم فتر

---

(١) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ٢٩٤.
(٢) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ٢٩٦.
(٣) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ٢٩٨.
(٤) خاتم النبيين ٣٧٤/١.

الوحي عني فترة فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعدٌ على كرسيّ بين السماء والأرض، فَفَرِقْتُ منه حتى هويتُ الى الأرض، فجئت أهلي فقلت دثّروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربَّك فكبّر وثيابك فطهّر والرجز فاهجر﴾[1] ثم حميَ الوحي وتتابع»[2] وفي رواية: أنه لما فتر الوحي عنه قالت قريش قلاه ربُّه فأنزل الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سَجَى ما ودّعك ربُّك وما قَلَى وللآخرة خَيْر لك منَ الأولى﴾[3].

## الأمر بالتبليغ:

وهكذا فقد جاءه ﷺ الأمر هذه المرة بَيّناً واضحاً بأن يهجر الرُّجز وهي الأوثان. وبأن ينذر قومه من عذاب الله ويخوّفهم من سوء العاقبة إن هم تابعوا سيرتهم في الكفر والضلال. ولذلك فقد ورد أنه ﷺ عقب هذا الأمر، شمّر عن ساق الجد، وقام يسعى في طاعة الله أتم قيام. يدعو الى الله الكبيرَ والصغيرَ والحرّ والعبد والرجال والنساء والقريب والبعيد والأسود والأحمر.

## الاسلام والكفاية والعلم:

ومن أول يوم بعث فيه ﷺ انطلق الى الناس يحمل رسالة ربه، رسالة العلم والنور والحق المبين لأنه كان من أول ما أنزل عليه قوله تعالى ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾. كان فيه حض للانسان على القراءة. وهي احدى وسائل المعرفة والعلم الهامة، كما كان فيه حض له وللانسان عامة على الكتابة وتعلّمها وتوجيه ضمني له

---

(١) المدثر ١ ـ ٥

(٢) حدائق الانوار لابن الرَّبِيْع القسم الاول ص ٢٩٨ وتفسير الطبري الجزء العاشر ص ٩٠.

(٣) خاتم النبيين ١/ ٢٧٣ ـ الضحى ١ ـ ٤.

الى ما فيها من فضل. فالعلم صيد والكتابة قيده. وبالقلم كانت الكتابة. وبالكتابة كان من المنافع ما لا يحيط بنعمها وإفضالها إلا الله. وحسبها أنها بها دونت العلوم وقيدت المعارف والحكم، وضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم وسجلت كتب الله المنزلة. وهي التي بها استقامت أمور الدين والدنيا وصلح عليه أمر الأولى والآخرة.

**الوثنية عبودية والاسلام حريّة:**

**والرسالة التي تقوم على العلم والحق من منطلق الحض على القراءة والكتابة وتستضيء بنورها لا ترتضي أن تستنيم الى ظلام الوثنية، ولا أن تلتقي مع عبادة الأصنام وتقديس النصب والازلام وتعظيم العِرافة والكِهانة في شكل من الأشكال، لأنها لا تلتقي مع الجهالة والهوى ولا تتوافق مع الباطل والفساد.**

والاسلام الذي يرفض عبودية الإنسان للأصنام وأيّة سخرة تكون لإنسان أو لكائنٍ في الكون اللهم إلا الله الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، هو دين يحفظ للإنسان حريته الفكرية ويصون له كرامته الشخصية.

**ومفهوم الاسلام في هذا هو الوصول الى تحرير الوجدان البشري من عبادة أحد غير الله الذي يحيي ويميت، ويضر وينفع ويرزق من في الأرض ومن في السماء، لأنه لا جدوى ترتجى من عبادة سواه. ولأنه ليس من أحد في ملكوت السماوات والأرض يستحقها دونه.**

**وإذا اكتسب المسلم هذا المفهوم حُقّ له من بعد، أن ينظر الى الناس من موقع المساواة، وحرّم على نفسه اتخاذ أيّ منهم ربّاً من دون الله أو أن يقرّ له عليه من فضل أو امتياز إلاّ فضل وامتياز العمل الصالح والتقوى. وما أروع قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بَيْنَنَا وبينكم ألاّ نَعبدُ إلا الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يَتَّخِذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يا**

---

(١) آل عمران ٦٤.

أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (١).

على أن الإنسان الذي تحرّر وجدانه من الخضوع بالعبادة لأيٍّ كان إلا لله الواحد القهّار، جدير به أن يستوثق من شعوره الفياض بأنه متين الاتّصال بربّه. ولا ريب أن هذا الشعور يضفي على قلبه كثيراً من الأمن ويساعده على أن يكون عظيم الطمأنينة على نفسه، ورزقه وولده وكل ما يتّصل بحياته الخاصة والعامة.

ومن أجل هذا وجّه الاسلام الأمر للمسلم بأن يستمسك بحرّيته الفكرية ويصون كرامته الشخصية، وأن ينشىء ذاته على معنى الاعتزاز بالحق والتظلل بفيئه من خلال إيمانه بالله، وبأنه هو وحده الخالق البارىء المصوّر المحيي المميت. وأنه هو وحده المالك لنواصي العباد، ويستوي أمامه كل الناس أميرهم وسوقتهم غنيّهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم، ولا يبرز تفاضلهم لديه إلا بالتقوى والعمل الصالح. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أغَيْرَ الله أتَّخِذُ وَلِياً فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَم﴾ (٢) ويقول: ﴿قل من يرزقكم في السماء والأرض؟ أمَّن يملك السّمع والأبصار؟ ومن يُخْرِج الحيّ من الميت؟ ويخرج الميت من الحيّ؟ ومَنْ يدبّر الأمر؟ فسيقولون الله﴾ (٣). ويقول: ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك مِمَّنْ تشاء وتُعِزّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بِيَدِك الخير إنّك على كل شيء قدير﴾ (٤).

وهنا نشعر ولا شك بأننا غدونا ندرك إدراكاً صحيحاً، لماذا كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي في أرجح الروايات قوله تعالى: ﴿إقرأ بِٱسْم ربّك الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسان من علق، إقرأ وربّك الأكرمُ الذي علّمَ بالقلم

(١) الحجرات ١٣.

(٢) الانعام ١٤.

(٣) يونس ٣١.

(٤) آل عمران ٢٦.

علّم الانسان ما لم يعلم﴾[1]. علماً بأن هذه الآيات بكل مضامينها مفاهيم جديدة على المجتمع العربي الجاهلي، ففيها القول بالإله الواحد، الخالق الأكرم الذي علّم الإنسان بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم.

ولسنا بهذا القول نريد أن نقرّر انحجاب ضياء الفكر عن الوثني أصلاً وفرعاً، ولا أن نسلخ منه مشاعر الكرامة وأحاسيسها ونوازع الحريّة الفكرية أساساً، فالواقع يرفض ذلك إن كان، وكذلك معايش الناس ومجتمعاتهم في القديم والحديث.

ولكننا نريد أن نثبت أن طريق الوثنية هو في الغالب، طريق محفوف بالظلام، ظلام العقائد الفاسدة والأحاجي والأساطير. ومغروس بمبرّرات الاسترخاء لعبودية الانسان لأخيه الإنسان ولما هو أدنى من الإنسان... وفي هذا ما فيه من فساد وبطلان. وفيه ما فيه من حجب ضياء الحق ونور الهداية عن بصائر الناس، وفيه ما فيه من دفع الإنسان ومجتمعه للاستئناس بكل ما يؤخره ويَشُدُّهُ إلى الهوان والخذلان ويأبى عليه التطلّع الى البحث عن عوامل التقدّم والتطوّر في مجالات العلم وساحات التمدن والتحضر والعمران.

## تسفيهه ﷺ لأحلام العرب وعبادتهم:

بهذا المفهوم، ومن هذا المنطلق التعبّدي والايماني وتنفيذاً لأمره تعالى، تحرك رسول الله ﷺ في قومه يدعوهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبيّن لهم بالمنطق والبرهان السديد فساد عقيدتهم وسفاهة عقولهم، ويعيب عليهم ما هم عليه من أوضاع متخلّفة وأعراف تُسقط مكانتهم الاجتماعية والإنسانية، وتحول دون تقديرهم الصحيح لله العلي القدير.

وقد صدع بأمره تعالى يكشف الغشاوة عن أبصارهم ليروا الحقيقة كما هي

---

(١) العلق ١ ـ ٦.

ويبرز لهم بالأسلوب البيّن الرائع جلال الله وسعة قدرته وعظيم صنعه في آيات كثيرة باهرة من كتاب الله نسوق منها قوله تعالى: ﴿قُلْ الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين آصْطفى. آلله خيرٌ أمّا يشركون؟ أمَّنْ خَلَق السموات. والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بَهْجةٍ ما كان لكم أن تُنْبتوا شجَرها. أإله مع الله؟ بل هم قومٌ يعدلون. أمّن جَعَلَ الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهارها، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرَيْن حاجزاً، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون. أمّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون. أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بُشراً بين يديْ رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون. أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قُلْ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله وما يشعرون أيّان يُبعثون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إنّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم آستوى على العرش يُدَبّر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه. ذلكم الله ربكم فاعبدوه. أفَلا تذكّرون. اليه مرجعكم جميعاً وعْدَ الله حقاً. إنه يبدؤ الخلق ثم يُعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون. هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾[2] وقوله: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة. وله الحكم وإليه ترجعون. قُلْ أرأيْتم إن جَعَلَ الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء. أفلا تسمعون؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾[3].

---

(١) النمل ٥٩ ـ ٦٥.

(٢) يونس ٣ ـ ٥.

(٣) القصص ٧٢ ـ ٧٣.

وهذه الآيات وغيرها كثير ومنتشر في كتاب الله تعالى نزلت على رسوله الكريم ليكاشف بها قومه والناس أجمعين، وليريهم الحقائق في الأرض والسماء. وأنفسهم وكل كائن، ليعلموا أن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله على كل شيء قدير. يقول الله تعالى: ﴿ذلك بأن الله يُولج الَّليل في النهار ويولج النهار في الَّليل، وأن الله سميع بصير. ذلك بأن الله هو الحق وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العليّ القدير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرّة إن الله لطيف خبير له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغنيُّ الحميد ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويُمْسِك السماء أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يُحييكم إن الإنسان لكفور﴾ (١).

وها نحن أولاء نراه ينقل لنا وصف الله تعالى لعبادتهم وتهكّمه بها وإخباره عنها بأنها عبادة ضائعة لأنها موجهة الى أوثان. وهي إفك وبهتان قد فقدت كل وسائل القدرة وعجزت عن كل شيء؛ فهي لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا عطاءً ولا رزقاً. وكان الأولى بهم عبادة من أخذ بنواصي كل الأشياء وأن يشكروه ويتقوه يقول الله تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفْكاً. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فٱبتَغُوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ (٢) ويقول: ﴿وٱتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ (٣).

ويتابع القرآن الكريم رسم موقف الاسلام وإعلانه على لسان النبي ﷺ، من آلهة القوم، وذلك باستعراض مواقفه من آلهة من سبقوهم وكانوا في مثل ضلالهم

---

(١) الحج ٦٠ - ٦٦.
(٢) العنكبوت ١٧.
(٣) الفرقان ٣.

ويقول على لسان نوح عليه السلام منهكما ومستهزئا: ﴿قال نوحٌ ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كبّاراً. وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً﴾[1] ويقول على لسان ابراهيم: ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إنّي أراك وقومك في ضلال مبين﴾[2]. ويقول: ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ربِّ إنّهنّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناس﴾[3].

## الهوى علة هذا الضلال وكل ضلال:

ويواجه القوم بمثل هذا على مدى ثلاثة عشر عاماً، ويعلل لهم انحرافهم عن الحق المبين، أنه بفعل انجرافهم مع الهوى وأخذهم بمبدأ اتباع الظن فيقول ﴿أفرأيتم اللات والعزّى ومَنَاةَ الثالثة الأخرى ألكُم الذكر وله الأُنثى؟ تلك إذاً قسمةٌ ضيزى. إن هي إلا أسماءٌ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتّبعون إلا الظنّ وما تهْوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهُدى﴾[4] ويقول ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فَمَنْ يَهْديه منْ بَعْد الله أفَلاَ تذكّرون﴾[5] ويقول: ﴿أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾[6].

## الانذار بسوء المصير:

ولم يكتف النبي ﷺ بأمر الله ووحيه بأن يسفّه أحلام قريش ومن حولهم من

---

(١) نوح ٢١ - ٢٤.
(٢) الانعام ٧٢.
(٣) ابراهيم ٣٥ - ٣٦.
(٤) النجم ١٩ - ٢٣.
(٥) الجاثية ٢٣
(٦) الفرقان ٤٣ - ٤٤.

الأعراب الوثنيين، ويحكم بضلال عبادتهم، بل كان يذهب إلى أبعد من هذا فينذرهم في حال الاستمرار على عبادتهم الخرقاء بأسوأ الخاتمة وأذل المصير فيقول ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنّم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ [1].

وهكذا فقد جرّد على الأصنام والأوثان والوثنية ومن انجرفوا في وحلتها وحمأتها حملةً قوية، جازماً بأنهم قد عميت قلوبهم وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل. وقد سانده فيها أصحابه المؤمنون بشجاعة وثبات لا تأخذهم في ذلك رأفة ولا يساورهم تردّد ولا يخيفهم تهديد أو وعيد ولا تعذيب أو تنكيل ولا يثنيهم حبس أو تهجير ولا حرب أو تقتيل؛ فقد كان مبدؤهم الدعوة الى الحق، ووسيلتهم الحكمة والصبر وأن يدفعوا بالتي هي أحسن..

## دروس في ذلك:

ولقد كان يتخلل الدعوة والتصدي لباطل المشركين أمثلة وأخبار للرسل السابقين كان يسوقها الله تعالى للرسول ﷺ ليقتبس منها مع أصحابه العبر والدروس في الصبر والثبات والجرأة في الحق وحسن التصرف وجمال المدخل والمخرج. ولقد كان من ذلك قصص آدم ونوح وموسى ولوط وعيسى ويعقوب ويوسف، وكان منهم ابراهيم عليه السلام بالذات الذي كان له مع الوثنية والوثنيين حجاج ومواقف، فلفت النظر الى بعضها وكانت له فيها الحجة البالغة والمحاورة الحكيمة الرائعة يقول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهُنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدَنّ أصنامكم بعد أن تُولّوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً

(١) الانبياء ٩٨ - ١٠٠

هم لعلّهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم: قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[1].

ولقد لفت الأنظار أيضاً الى أسلوبه الحكيم في معالجته أباه الذي يحبه ويحرص على رضاه. لقد كان يجده في ضلاله المبين، فرغب في إنقاذه منه، فلما لم يستجب حاول التوفيق بين حبه له وحبه لله، وحرصه على هداه وحرصه على رضوان الله وتعزيز كلماته. وهو يعلم أن روابط العقيدة أسمى وأعلى وأقوى من روابط النسب؛ بل وتتخطّى مشاعر اللياقة والحب، لأنه لا لياقة ولا حب مع الفساد والباطل. بل اللياقة كلها والحب كله في أن تزلف الى من آنحرف عن الهدى وآستكان للجهالة، وتكشف له ما هو فيه من خطل وغي لتردّه عنه وتبدله به ضياء الحق ونوره المبين يقول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيّاً. إذْ قال لأبيه يا أبت لم تَعْبُدْ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت قد جاءني من العلم ما لم يأتك فآتّبعني أهْدِك صراطاً سويّاً يا أبتِ لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني أخاف أنْ يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا. قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئِنْ لم تنته لأرجمنّك وآهجُرْني ملِياً. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً﴾[2].

ويسرد علينا رب العالمين محاورة إبراهيم مع قومه مبيّناً لنا الحجة البالغة التي آتاه أياها فيقول: ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماآلهة إني أراك وقومك في

---

(١) الانبياء ٥١ - ٦٧.

(٢) مريم ٤١ - ٤٧.

ضلال مبين. وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين فلمّا جنّ عليه اللّيل رءا كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين. فلما رءا القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكوننَ من القوم الضالّين فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر. فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجّه قومه قال أتحاجونيّ في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولاَ تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون. وتلك حجتنا أتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾[1].

ولقد كان يسرد أخبار وقصص السابقين من الأنبياء والرسل، ثم يتجه الى أنصار الاسلام واتباعه المؤمنين فيرشدهم الى الاقتداء بهم وبالذين آمنوا معهم والاستهداء بمواقفهم الرائعة التي وقفوها مع أقوامهم المشركين. وفي ابراهيم بالذات وقومه المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين آمنوا معه إذْ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده..﴾[2].

## في الوثنية استساغة للأوهام والتبعية لكل مجهول:

وفضلاً عن أن الوثنية باطل يفترى على الحق ويروّج الكذب، فهي أيضاً تدفع بفكر الإنسان لاستساغة التبعيّة لكل مجهول وغامض، واستمراء الأوهام والظنون

(١) الانعام ٧٣ - ٨٣.

(٢) الممتحنة ٤.

والخضوع لألاعيب المهرجين من الكهان والمنجمين والسحرة وحيلهم ومكرهم. هؤلاء الذين طالما أضلوا الناس واسترهبوهم وأذلّوا رقابهم وزيّنوا لهم الباطل وموّهوا لهم الحقائق. بل انها لتزيّن للإنسان القناعة بالضعف والاسترخاء للعبودية. سواء لما هو متمثل بالنار، كما كان حال المجوس أو للشمس والنجوم، كما كان شأن المصريين وغيرهم، أو للشجر والحيوان والخشب والمعدن والحجارة، كما كان حال العرب وبعض المصريين وسواهم... وكلها عند إنعام النظر ضعيفة عاجزة اذا ما قورنت بما أوتيه الإنسان نفسه بفضل الله وتوفيقه من قدرة وإمكانات.

والإنسان عندما يستغرق في عبوديته الجامحة لهذه الأشياء وأمثالها، يتخلّى عن بعض كرامته الإنسانية وحرّيته الفكرية. ويخسر الكثير من قدرته على التخلّص من عبودية الخوف على الحياة والرزق والمكانة والقيم الاجتماعية من الجاه والحسب والمال والنسب، ويعجز مع الزمن عن أن يشرف الأمانة التي تصدّى لحملها، أمانة مسؤولية إعمار الأرض واستصلاحها وتطوير المعاش واستنباط وسائل الابداع والقدرة لاكتشاف آيات الله في الآفاق وفي أعماق البحار وأجواف الأرض وأطراف الفضاء وفي أغوار النفس البشرية وأبدانها مما ييسّره الله للإنسان ويفتح به عليه استجابة لجدّه، ومطاوعة لآماله وحاجاته وطموحاته... وإلا فلماذا كانت مشيئة الله تعالى ليجعل من الإنسان خليفة في الأرض يرتفع في ملكوت الله ويسخّر ما يحلو له منه؟ أو لماذا كانت مشيئته الأزلية ليقبل هذا الإنسان تحمّل الأمانة التي عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أنْ يحملنها معه واشفقن منها، اذا لم يكن لينطلق بها الى مسار رفيع ومنهج سام نبيل في ضوء ما حباه الله من تشريع وهداه إليه من هدى ودين؟! أفليس الإنسان العاقل العالم المريد الفعّال المتحرك، هو الذي يصنع بيده الأصنام والأوثان الصغيرة وينحت منها من الجبال ما هو اضخم وأكبر؟ أوَ ليس باستطاعته أن يتصرف فيما حوله تعديلاً وتحويلاً وتقديماً وتأخيراً، وأن يقارب بين المتضادات، ويجانس بين المتنافرات. ويسخّر عناصر الكون فيفعل بها الغرائب والعجائب والمدهشات؟! ألم

بوطىء العقبات ويذلل الصعاب ويجعل شبه المستحيل ممكناً ومطـواعـاً، فيشق الطرق والشعاب في أعالي الجبـال وإليهـا، وفي أغـوار الوديـان وإليهـا، وأعماق البحار، ويُدني أطراف الدنيا وأقاصيها بعضها من بعض؟! ويعلي الشاهق من البنيان، ويركب متن الهواء وأمواج البحر، ويغوص في أغواره، ويسخّر بطون الأرض لمنفعته ويجعلها في خُدمة مصالحه ومقاصده؟!

إن بإمكان المرء أن يصل الى مثل هذا لو ظل مستسلماً لعبوديته الى الحجر الأصم أو الحيوان الأعجم والكائن الضعيف. وقد وصل الى أكثر من ذلك كما نرى في العالم الشرقي وأمثالهم، ولكنه وصل وهو بعيد عن كثير من القيم الدينية المتوفّرة لدى من عمرت قلوبهم الوحدانية، بفضل ما يتمتع به من طاقات شخصية عظيمة. ولو اجتمعت لديه مع هذه الطاقات العجيبة التي يمتاز بها، تلك المفاهيم والقيم الروحية السامية لأعطى الأكثر ولفاز بما هو أهم وأعظم.

فلقد اتبع الإنسان العربي في الماضي الجاهلي هواه، وخضع لأوهامه وخطرات نفسه ومغريات أهوائه فضلّ كما ضلّ الإنسان بسبب ذلك في كل مكان، وغاص في جهالات طائشة حمقاء رَدَحاً طويلاً من الزمن، الى أن جاءه صوت الحق يجلجل في أذنيه وقلبه ويوقظه من غفلته، أو يبعثه من موته ويردّه الى صوابه ورشـاده والى نظرته السليمة التي فطره الله عليها وينبهه الى ضرر الهوى وخطر اتباعه ويهيب به الى أن لا يسترخي له لأن مثله سيكون حينذاك كمثل الأنعام الشاردة التي لا تهتدي الى حق، ولا تستقيم على خط فيقول سبحانه: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[1].

## لا هوادة مع الوثنية:

لهذا كله أعلن الرسول ﷺ باسم الاسلام الذي حمله الى الناس جميعاً، حرباً

---

(١) الفرقان ٤٣.

على الوثنية وعلى الشرك وكل مضامينها ومظاهرها لا هوادة فيها، وواجه رجالها الأشداء وجبابرتها بموقفه الشديد الحازم الذي لا لين فيه ولا مساهلة، والذي لا يخاف معه في الله لومة لائم. ولِمَ لا ؟ وربّه الآخذ بناصيته يأمره بوحيه المبين فيقول ﴿يـا أيها النبيّ جـاهـد الكفـار والمنـافقين واغلـظ عليهم ومأواهـم جهنم وبئس المصير﴾[1].

**أمثلة من مواقفه ﷺ :**

وقد شهدت سيرة النبي ﷺ مواقف رائعة في هذا السبيل ننقل بعضها على سبيل المثال لا الحصر؛ فقد مشى زعماء قريش يوماً الى أبي طالب عم النبي ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أنهد فتى في قريش وأجملهم،وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً فأبى.ثم ذهبوا إليه مرة ثانية وقالوا له : « إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد آستنهيناك من آبن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك الله أحد الفريقين ».

ولما بعث أبو طالب الى رسول الله ﷺ يقصّ عليه خبر رسالة قريش وأرفد ذلك يقول: « فأبق عليّ وعلى نفسك لا تحمّلني من الأمر مالا أطيق » قال له رسول الله ﷺ : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » .

ويروي ابن كثير في كتابه السيرة النبوية، أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ . فضُربت عليهم قبة في المسجد، واكرم الرسوم وفادتهم اكراماً عظيماً وطلب إليهم أن يسلموا، فأعلنوا إسلامهم ولكن في بقيّة من جاهلية إذْ اشترطوا عليه أن يدَعَ لهم الطاغية « اللات » ثلاث سنين. فرفض. فطلبوا إليه أن يدعها سنتين.

---

(١) التحريم ٩.

فرفض. فطلبوا إليه أن يدعها سنة واحدة. فأبى. فما برحوا يسألونه ذلك حتى سألوه أن يدعها لهم شهراً واحداً بعد مَقْدَمِهم ليتألفوا سفهاءهم فأبى أن يدعها شيئاً مسمّى. فسألوه عند ذلك أن يعفيهم من أن يكسروها ويكسروا أصنامهم بأيديهم فأجابهم أن طلبهم هذا. وأرسل اليهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان ابن حرب ليهدماها..

وقد ورد في حواره معهم في هذا الأمر أنهم قالوا له: «ما أنت صانع بالرَّبَّة أي «اللات» فقال: «اهدموها» فقالوا هيهات!! لو تعلم الربّة أنك تريد هدمها قتلت أهلها. فقال عمر بن الخطاب لأحد زعمائهم وهو ابن عبد ياليل: «ويْحَكَ ما أجهلك؟! إنّما الربّة حجر!! فقالوا: «إنا لم نأتك يا ابن الخطاب»..

وقد روي أنهم طلبوا اليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه» وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالزنى لأنهم كثيرو الاغتراب ولا بدّ لهم منه فرفض ذلك وقال لهم: «ان الزنى حرام».والله تعالى يقول: ﴿ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا﴾[1] وطلبوا إليه أن يأذن لهم بالتعامل بالربا فأبى وقال: «لكم رؤوس أموالكم» والله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾[2]. وسألوه أن يجيز لهم شرب الخمر لأنها عصير أرضهم.ولا بدّ لهم منها.فقال ﷺ «إن الله حرّمها».وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون﴾[3].

لقد حارب الرسول ﷺ الوثنية بحزم ولم يتراخ معها أبداً، لأن الإيمان كل لا يتجزأ. والإنسان إما أن يؤمن وإما ألا يؤمن. فإن آمن فقد فاز بطمأنينة الإيمان

---

(١) الاسراء ٣٢.

(٢) البقرة ٢٧٨.

(٣) المائدة ٩٠ راجع هذه الواقعة في السيرة لابن كثير ٥٣/٤

وبرد اليقين. وإن كفر فقد رجع بخزي الدنيا والآخرة. وإن لم يؤمن ولم يكفر فقد وقع في الشك والتردد والارتياب وإذا كان الإيمان والكفر لا يلتقيان، فكذلك الإيمان والشك لا يمكن أن ينطوي عليهما معاً قلب إنسان والله تعالى يقول: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾(١).

ولم يكن هم الرسول ﷺ مقتصراً على مجابهة شعارات الوثنية ورموزها ومعالمها البارزة، بل كان يتسع لاقتلاع أصولها ومفاهيمها ودلالاتها وكل بادرة تحمل معانيها حتى يضمن سلامة عقيدة أتباعه من كل انحراف عن خط الوحدانية الواضح.

**أثر التوجيه النبوي في نفوس الصحابة:**

ولقد نشأ أتباعه على ذلك نصحاً وتعليماً وتربية، فانقطعت صلتهم بالمشركين وشركهم ونواديهم ومعاملاتهم المشتبهة. واحبوا الله ورسوله ومحّضوهما الإخلاص اقتداءً برسولهم العظيم الذي أمره الله تعالى بقوله: ﴿قل إني أُمِـرْتُ أنْ أعْبُـدَ الله مخلصاً له الدين وأُمِرْت لأن أكون أول المسلمين، قل إني أخاف إن عَصَيْت ربي عذابَ يوم عظيم. قُلْ اللهَ اعْبُدُ مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه. قل إن الخاسرين الذين خسروا أنْفُسهم وأهليهم يـوم القيـامـة ألا ذلـك هـو الخسران المبين﴾(٢).

ولقد أفردوا الله تعالى بالعبودية له. ونزهوه عما لا يليق. ولم يوالوا أعداءه المحاربين له تبعاً لأمر الله الوارد في كتابه الكريم: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حآد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله

---

(١) الكهف ٢٩

(٢) الزمر ١٠ ـ ١٥

ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[1]

ولقد كان حبهم لله ولرسوله فوق كل حب، حتى أنه قد ورد عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري أنه قال يوماً لرسول الله: «يا رسول الله إذا متَّ ومتنا وكنت في علّيين لا نراك ولا نجتمع بك. وذكر حزنه على ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[2] فلما مات النبي ﷺ قال: «اللهم أعمني حتى لا أرى شيئاً بعده فعمي مكانه»[3]. ومثل هذا الخبر كثير. فقد أقبلوا رضوان الله عليهم على الله وعلى الرسول بكل قلوبهم لا يصرفهم عنها شيء من الدنيا مهما كان مغرياً أو حبيباً. ولذلك أقبل الله عليهم ونصرهم ووفقهم وفتح لهم كل أبواب الخير... كان هرم بن حيّان يقول: «ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله عليه بقلوب أهل الايمان حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

وقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام، فقال: «إني أحب فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض» والعكس إذا أبغض الله عبداً من العباد.

ولا عجب فإن مرتبة الإيمان المصفّى من كل دَخَل، والمنقّى من كل لَوثة، هي المرتبة التي يفوز بها المؤمن الصالح، بالنجاة من لعبة الشيطان ولَمّته التي ذكرها الرسول ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لابن آدم لَمّتان لَمةٌ من الملك ولَمّة من الشيطان»[4] وهي الخطرة تقع في القلب. فما كان من خطرات الخير فهو

---

(١) المجادلة ٢٢.

(٢) النساء ٧٠.

(٣) القرطبي الجزء الخامس ٢٧١.

(٤) النهاية في غريب الحديث لابن الاثير ٤/٢٧٣

من الملك . وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان . وإنه لما تمرّد أبليس على أمر ربّه له بالسجود لآدم ، وطرده الله تعالى من ملكوت السموات ، طلب أبليس أن ينظره إلى يوم يبعثون ، فأنظره وأمهله . فلما استوثق من ذلك أعلن جازماً أنه سيطارد ابن آدم في كل مكان وفي كل شكل حتى يغويه ويضلّه ، وأقسم أنه لن يدعه ينجو من أحابيله وإغراءاته . ولكنه عاد فاستثنى من ذلك المخلصين من عباد الله المؤمنين . ولقد نقل الله تعالى لنا هذا الحوار الذي جرى وفيه : ﴿قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمَإ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة الى يوم الدين . قال ربّ فانظرني الى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغوَيتني لأزيّنَنّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك من الغاوين وإن جهنّم لموعِدُهُم أجمعين﴾(١) .

وساعة يفوت الإنسان المؤمن أن يكون في مرتبة الإيمان الخالص ، يهوي ولا ريب ، الى حضيض النفاق الذي يفقد معه خصلة الإيمان وجدارة الاكرام والحفظ الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وقوله تعالى : ﴿إن المنافقين في الدّرْك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا وآعتصموا بالله وأخلصوا دِينهم فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾(٢) .

## مظاهر الشرك الخفي :

ولقد حرص الرسول ﷺ على أن يكون اتباعه المؤمنين بريئين من كل شرك مهما كان لونه ونوعه حتى أنه حذرهم من الاهتمام بالدرهم والدينار والأشياء

---

(١) الحجر ٣٢ ـ ٤٣ .

(٢) النساء ١٤٥ ـ ١٤٦ .

الدنيوية اهتماماً ينسيهم الله ويظهرهم كأنهم تعبدوا لها . فقال فيما رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه « تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش [ أي إذا أصابته شوكة فلا تخرج ] إنْ أُعطِي رضي وإن مُنع سَخِط » لأنه ربط بها آماله وعقد عليها أمانيه، وجعل دنياه كلها موقوفة على ما يكون له منها، فإن عظمت عظمت في نظره الحياة وإن ضؤلت اسودّت في عينيه الدنيا . وكل هذا ثمرة أمر الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ (١). وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ (٢).

ولذلك فقد شجعهم بأن يعلقوا آمالهم وأمانيهم عند آيات الله ويجعلوا حبهم له ولرسوله فوق كل حب، وأن يجعلوا حبّهم للناس حبّاً لله وفي الله، خالصاً من أي تفكير بمغنم يحصلونه، وأن يجعلوا كرههم لهم كرهاً لله وفي الله لا لمصلحة شخصية أو معاناة اجتماعية. يقول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه: « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان من يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبّه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار ».

## ـ اسلوب الرسول ﷺ مع الوثنيين:

ولقد انتهج الرسول ﷺ مع الوثنيين والمشركين عامة وغيرهم أوضح المسالك وأيسرها، ليصرفهم عما هم فيه من جهالة وضلال وليردّهم الى الحق ويهديهم سُنَن الذين اتقوا وأخلصوا لله متوسلاً بالحكمة والمرونة واللين وكل صنائع التحبّب

---

(١) المنافقون ٩ .

(٢) التغابن ١٣ ـ ١٤ .

ليحسّن لهم تقبل الحق والهدى، والانتهاء عن الباطل والشر، مستفيداً من إرشاد الله له وتوجيهه بما كان يوحيه إليه من أخبار من سبقه من الأنبياء والمرسلين. كقوله تعالى آمراً سيدنا موسى وأخاه هرون عندما أوفدهما الى فرعون ليذكراه بالحق ويدعواه الى الهدى: ﴿إذهبا الى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾[1] وقوله ﴿أدعُ الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[2].

ولقد كان لمنهجه هذا مع المشركين أكبر الفضل وأعظم الأثر في آتباعه وقبول دعوته وترك ما هم عليه من عقائد الآباء والأجداد. روى البخاري عن خباب بن الارتّ أنه قال: «أتيت النبيَّ ﷺ وهو متوسّد ببردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت ألا تدعو الله؟! فقعد وهو محمرّ الوجه فقال: «قد كان من قبْلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن ذلك. ولَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضر موت ما يخاف إلا الله عز وجل ولكنكم تستعجلون».

ولقد كان أصحابه يشكون كثيراً من مضايقة المشركين وتعذيبهم، فكان يرقّ لهم ويتلطف معهم ويقص عليهم من خبر الأولين ما يشجعهم ويثبّت قلوبهم ويعلي هممهم. كما كان يسمع لهمومهم وأحزانهم وهي تطرح عليه قصصاً وأحداثاً، ويصغي لأنينهم المُمِضّ وألمهم المضني، ثم يحضهم على الصبر ويبشرهم برضوان الله وجنانه. بل كثيراً ما كان يقع عليه من ذلك أمثال مرهقة ومؤلمة. فقد تفل ابن عمه أبي لهب في وجهه ذات مرة، وكاد عقبة ابن أبي معيط يخنقه بثوبه، ورمى أبو جهل عليه فرث الجذور وهو يصلي. وكان ﷺ يقابل كل ذلك بالصبر والتحمل اللذين كان يوصي بهما أصحابه.

---

(١) طه ٤٣ - ٤٤.

(٢) النحل ١٢٥.

وكان صبر الرسول ﷺ وتحمله مع محاسنته لقومه، وثباته على منهجه الرقيق اللطيف يتوسل به للدخول الى قلوب الناس هو الذي جعل دعوته تنتقل من نصر الى نصر، ومن موقف حسن الى موقف آخر أكثر حسناً. يزيد الناس له اكباراً ولدعوته اجلالاً واستحساناً.

ولقد حدث ابن اسحاق أن أبا جهل وقف ذات يوم في قريش يقول: «يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا. وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. فلما أصبح أبو جهل لعنه الله، أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ينتظره. فلما جاء رسول الله وقام يصلي، فلما سجد احتمل أبو جهل الحجر وأقبل عليه، فلما دنا منه، رجع منبهتاً منتقعاً لونه مرعوباً، وقذف الحجر من يده. فقام إليه رجال من قريش، فقالوا له: ما بك يا أبا الحكم؟ قال: قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحلٍ قط فهمّ أن يأكلني»[1].

وهذه القصة تكشف بعض ما كان يلاقيه الرسول من كفار قريش من تحد وأذى وعذاب، وما كان منه من تحمل وصبر..

ومثل هذه القصص والوقائع كانت تنتهي بسبب حسن موقف الرسول وحكمته ومرونته، إلى إسلام البعض وانقلابهم أعداء ألداء للوثنية والوثنيين.

## اسلام حمزة:

وقد روى ابن اسحاق أيضاً فقال: «حدثني رجل من أسلم كان داعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكره من العيب

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٤٣.

لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن تسمع ذلك.. فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحاً قوسه، راجعاً من قنص له. وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له. وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالبيت. وكان اذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وتحدّث معهم. وكان أعزّ فتى في قريش وأشد شكيمة. فلما مرّ بالمولاة [ التي سمعت سب أبي جهل ] قالت له يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي آبن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم ابن هشام، وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد ﷺ. فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة. فخرج يسعى ولم يقف على أحد، عامداً لأبي جهل اذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه فضربه بها فشجّه شجّة منكرة. ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فردّ ذلك علي إن استطعت. فقام رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ »(1).

وقد ورد أن حمزة رضي الله عنه بعد أن قال ما قال عاد الى نفسه وساء لها ماذا فعلت؟ وكأنه فزع أن يكون قد التوى عن سبيل الحق وفعَل ما يستحق الملامة عليه، واعترته حيرة مربكة فترة من الزمن ثم استقام له الأمر واهتدى الى ضياء الاسلام اهتداء صحيحاً.

وقد نقل ابن اسحاق والبيهقي مثله قال: بعد أن كان من حمزة ما كان: « أقبل على نفسه وقال ما صنعت، اللهم إن كان خيراً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فآجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً: فبات بليلةٍ لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال: « يا آبن أخي إني قد وقعت في أمر

---

(1) سيرة ابن هشام ١/٢٩٢.

ولا أعرف المخرج منه. وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو، أرُشدٌ هو أم غي شديد. فحدثني حديثاً. فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني. فأقبل رسول الله ﷺ فذكّره ووعظه وخوّفه وبشّره فألقى الله تعالى في قلبه الايمان بما قال رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك الصادق، فأظهر يا ابن أخي دينك فوالله ما أحب أن لي ما أظلّته السماء واني على ديني الأول. فكان حمزة ممن أعز به الدين»[1].

وكما كان لمنهج الرسول ﷺ من أثر طيب في قومه فقد كان مثل ذلك لخُلُقه وسيرته فيهم، بل ومن بعد في الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعْفُ عنهم واستغفر لهم﴾[2]. ويقول: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم﴾[3].

## مخاطبة العقل وعدم اعتماد الخوارق والمعجزات:

وقد كان اعتماده بعد الله، في منهجه الحكيم هذا على العقل يستنهضه ويحاوره ويبصّره ويبرزه له الأدلة والآيات المقنعة. ويضرب له الأمثال ويعرض له الصور الصادقة ويلفت نظره الى ما في السماوات والأفلاك والشمس والقمر والنجوم، والى الأرض وما عليها من الجبال والبحار والأنهار والأشجار والأثمار والنبات من كل صنف ولون وشكل موزون، والى الحيوان على اختلاف ما يكون منه مما يمشي على أربع أو يمشي على رجلين أو يمشي على بطنه، ومما يصل حجمه إلى أضعاف حجم الإنسان، أو يتضاءل حتى يصبح بحيث لا يرى بالعين المجرّدة.

ويكرر الإشارة الواضحة الى كل ذي علم الى وضع الأرض مقروناً بذكر الشمس والقمر والنجوم السابحة في الفضاء أحياناً كما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي

---

(١) البداية والنهاية ٧٣/٣.
(٢) آل عمران ١٥٩.
(٣) التوبة ١٢٨.

خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ مستنهضاً فيه رغبة البحث عنده ورغبة التأمل والدرس، ومثيراً لديه كل موجبات التساؤل بحثاً عن الحقيقة الكونية في كل شيء.

بل إنه ليلفت نظره الى غير ذلك من الكائنات ممن خلق؛ من نار أو من نور، ويختلف عنه في الامكانات والأحوال بحيث يراه هو وقبيله من حيث هو لا يراه؛ ممن هو مطيع كل الطاعة لله ولا يسبقه بالقول وهم بأمره يعملون، أو ممن هو متمرّد على أمره خارج عن طاعته ويتردّى يوماً بعد يوم في الخسف والضلال المبين..

وكثيراً ما يستثير فضوله ويغريه بالتوجه الى ما تنطوي عليه تلك المخلوقات من آيات ومدهشات تشهد بقدرة الله وتدل على عظمته وجلال صنعه وبخاصة الى ما ينطوي عليه خلقه هو بالذات؛ الذي بدأ من طين ثم تحول الى نطفة فعلقة فمضغة مخلّقة وغير مخلّقة حتى يخرج من رحم أمه إنساناً سوي الخلق والكيان. كل ذلك ليسوّغ له تقبّل الحقيقة ومجافاة الأباطيل والاستسلام العاقل لربّه الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى...

وهكذا ينبغي أن نقر بأن الله تعالى قد آرتضى الاسلام ديناً لعباده ليرسي فيهم دعائم الحق والخير والعدل ويرفع منائر القيم الصالحة ويعزز معالم المفاهيم الانسانية المثلى في نفوس الأفراد والجماعات. ولقد كان عقل الإنسان هو المرتجى الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لتخلية طريقه مما يعترضه من دعاوى الوثنية والالحاد وما تتوسل به من أفانين الاغراء والاغواء والاضلال.

## حملة القرآن في هذا السبيل:

ولقد جرّد القرآن الكريم لهذا الغرض حملة مركّزة من التذكير والترغيب والترهيب والحوار البناء. ووضع بين يدي العقل الواعي الفهيم معلومات يقينيّة عن الخالق، وبداية الخلق، تساعده على تقبّل آرتباط بداية التكليف به، ومن ثم على

تحمل المسئولية أمام الله والمجتمع. وقديماً قيل: « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته أوليس الفجّار في النار يقولون: ﴿لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا من أصحاب السعير﴾ [١]. وبعد أن أقام ابراهيم الحجة على قومه بأن آلهتهم لا تملك دفع الضرر عنها قال: ﴿أفَتَعْبُدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ [٢]. ولقد قال الحسن وقتادة وكذلك مجاهد وابن عباس والسدّى والثوري ان المراد من الرشد في قوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنسْتُم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم﴾ هو هنا الصلاح في العقل والدين... » [٣].

وما أكثر ما ود في القرآن من آيات تهتف بالعقل ليصحو ويؤدي دوره الحصيف. يقول الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ [٤] ويقول: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحياء به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [٥] ويقول: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [٦].

ولو رجع القارىء إلى كتاب الله الكريم واستعرض الآيات التي هي في هذا

---

(١) الاحياء للغزالي الجزء الاول ص ١٤٢ - ١٤٣ والآية من سورة الملك آية ١٠

(٢) الانبياء ٦٦ - ٦٧.

(٣) القرطبي ٣٧/٥.

(٤) الحج ٤٦.

(٥) البقرة ١٦٤

(٦) الرعد ٣ - ٤.

الباب . وما أكثرها . لوجد فيها ما يزيده يقيناً بهذا المعنى . بيد أنه ينبغي مع الاعتراف بفضل هذا العقل، الاقرار أيضاً بأنه هو مدار كرامة الإنسان وفضله وامتيازه على المخلوقات جميعها . وأنه هو الذي سوّغ له أن يكون خليفة في الأرض وحامل الأمانة التي أبت السماوات والأرض حملها وأن يكون صاحب السلطان على الأرض بفضل الله من دون الخلق طراً .

ومن أجل هذا عظمت مسئولية العقل البشرية وكان لا بد من إحاطته بكل التشريعات والاجراءات التي تحفظ له صفاءه وقوّته، وتبعد عنه كل ما قد يؤثر عنه تخديراً أو توهيماً، وتمنع عنه كل ما يحجب رؤيته السليمة ويقظته الواعية المستوعبة كالأساطير والايحاءات النفسية المخادعة والضارة وعبادة الأوثان وممارسة السحر والتنجيم وغير ذلك .

## التفريق في الدعوة بين الإنسان والوثنية :

ومن منطلق تعظيم الاسلام للعقل وتقديره لدوره البناء لا بد هنا من التنبيه الى ما تحلّت به سيرته ﷺ لدى معاملته المشركين من تفريق بين إنسانيّتهم ووثنيّتهم . فلقد جاء بأمر الله يحمل على الوثنية والشرك حملة شعواء لا هوادة فيها ولا مساهلة، فناوأها بكل الوسائل وعلى أية صورة بدت . ولكنه ظل يحفظ للإنسان المشرك قيمته الإنسانية ويأمل كل الأمل بأن يتمكن من مساعدتها فيه لإنجائها من خطر الشرك وبلائه العظيم . فقد ثبت في الصحيحين عن طريق عبد الله بن وهب أن عائشة رضي الله عنها حدّثته ﷺ فقال : « هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من أحد ؟! قال ﷺ : « ما لقيت من قومك كان أشدّ منه يوم العقبة إذْ عَرَضْتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال . فلم يجبني الى ما أردت وانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْن الثعالب . فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت

ثم ناداني ملك الجبال، فسلّم علي، ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك.
وأنا ملكُ الجبال. وقد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت. إن شئت تُطبق عليهم
الأخشَبَيْن!! فقال رسول الله ﷺ «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله
لا يشرك به شيئاً»[1].

وفي معركة بدر، حيث يحرز الاسلام لأول مرة في تاريخه المجيد، النصر على المشركين، تسنح الفرصة للنبي ﷺ لينتقم من المشركين بقتل اسراهم بعد التنكيل بهم والتشفي منهم انتقاماً لقتلى المسلمين على مرّ ثلاثة عشر عاماً، وثأراً للذين جرّدت عليهم طيلة هذه الفترة أسوأ حملات الكره والتصفية... ولكنه ﷺ يؤثر بعد أن تداول مع أصحابه في شأنهم ومصيرهم أن يقبل مفاداتهم ويرفض أن يضرب أعناقهم... ورغم أن الله تبارك وتعالى قد عاتبه فيما بعد على اختياره هذا بقوله: ﴿ما كان لنبيٍ أن يكون له أسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[2]. إلا أن هذا الاتجاه يمثل في الأصل ميله الوجداني ويُعبّر عن خاصة الرحمة التي خلقها الله تعالى فيه وجبله عليها..

وكذلك يوم الفتح، يوم دخل مكة منتصراً، ورجعت قريش بقضّها وقضيضها بخزي الدنيا، وجمع أهلها كلهم بين يديه في ساحة الحرم وسألهم: «ما تظنّون أني فاعل فيكم؟ فلما قالوا له أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم: «آذهبوا فأنتم الطلقاء»[3].. أفلا يعبّر هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ على عمق فكره وتمكنه من الفصل بين إنسانية هؤلاء المشركين وشركهم؟! أليس قوله لهم إذهبوا فأنتم الطلقاء، كان موجهاً الى اعدائه المشركين؟؟ وكيف يطلق سراحهم ويعفو

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) الانفال ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) حياة محمد هيكل ٤٢٦.

عنهم ويتركهم يسرحون ويمرحون وهم الذين عذبوه ونكلوا بأصحابه وهجروا الكثيرين منهم من أرض الآباء والاجداد وقتلوا بعضهم بغياً وظلماً؟ كيف يتركهم وهم يحملون الوثنية ويجاهرون بالشرك؟؟

نعم إن الرسول ﷺ يعلم أن المشرك يحمل في قلبه الشرك الذي جاء هو ليمحو آثاره وينفي وجوده إن أمكنه ذلك من الأرض لأنه في الحقيقة أصل كل شر ومصدر كل فساد. ولكنه يعلم أيضاً أن المشرك إنسان من لحم ودم وفكر وإحساس قابل للتأثر ومستعدّ للتحوّل والتغيّر. خلافاً للشرك في ذاته فإنه مهما تقلبت الظروف يبقى شركاً أصيلاً لا يحتمل التبدل ولا التغيّر. والمشرك كإنسان هو من موقعه الإنساني عرضة دوماً للتطوّر والتقلّب بقدر ما يكون لديه من استعداد لرؤية ما حوله والتأثر به، فإذا كان الآن مشركاً فلا يبعد أن يصبح في الغد مؤمناً إذا ما تيسّرت له أسباب الإيمان. وإذا كان اليوم عدواً فلا يمتنع أن يصير فيما بعد صديقاً صحيحاً... وما سمي قلب الانسان قلباً إلا لتقلّبه، وما دام في الكون مؤثرات تفعل فعلها في قلب الإنسان فسيبقى هذا القلب قابلاً للتغيّر والتبدل.

ولولا هذه الحقيقة لما كانت دعوات الاصلاح في التاريخ ولما كانت الرسالات أصلاً، وهي تنشد الإصلاح والتطوير والتغير الى الأحسن والأفضل. وهذا هو القرآن الكريم يقول: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [1] وهو قول يحمل على فتح الباب على مصراعيه أمام المشرك ليسمع كلام الله، وليكون له من ذلك مدخل إلى حقيقته، فيدرك ما ينطوي عليه من الخير والنور والضياء، ويهوي اليه قلبه فيقبل به ويهتدي الى سبيل الله القويم.

إن تفريق الرسول ﷺ بين إنسانية المشركين وشركهم، وأمله الكبير بأن

---

(١) التوبة ٦

تمكن بفضل الله من انقاذهم من الشرك ، هو الذي حمله على أن يدعوهم إلى الإسلام وأن يصبر عليهم ثلاثة عشر عاماً من الدعوة والتوجيه ، وأن يقابل ما كان يراه منهم من صدود ونكال وقسوة بمزيد من الاقبال والسماحة والرحمة والسلام.

ولا يسعنا في هذه المناسبة إلا أن نرفض قول من يقول بأن الاسلام جاء لحض المسلمين على قتل المشركين كافة ومبادأتهم بالحرب والاستئصال لأنهم الخصوم والأعداء والله تعالى يقول: ﴿ فإذا آنسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم وآحصروهم وآقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ (١) .

والواقع أن هذه الآية وما سبقها نزلت في مشركي الجزيرة العربية الذين دخلوا مع الرسول ﷺ في عهود مؤقتة أو غير مؤقتة ، والحكم الوارد فيها هو حكم خاص بهؤلاء ولا ينسحب على سواهم .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا « وهذه الآية هي التي يسمونها آية السيف. وآعتمد بعضهم أن آية السيف هي قوله تعالى: ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ وقال بعضهم إنها تطلق على كلٍّ منهما أو على كِلْتَيْهِما . ويكثر في كلام الذين كثروا الآيات المنسوخة أن آية كذا وآية كذا من آيات العفو والصفح والإعراض عن المشركين والجاهلين والمسألة وحسن المعاملة منسوخة بآية السيف . والصواب أن ما ذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الأصولي في شيء . قال السيوطي في أقسام النسخ في الاتقان ما نصه : « الثالث » ما أمر به لسبب ، ثم يزول السبب كالأمر ، حين الضعف وحين القلّة ، بالصبر والصفح ثم نسخ بايجاب القتال ، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً ، بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى: ﴿ أونُنسأها ﴾ . فالمنسأ هو الأمر بالقتال الى أن يقوى المسلمون . وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى . وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن

---

(١) التوبة ٦ .

الآيه في ذلك منسوخة بآية السيف. وليس كذلك. بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد، يجب آمتثاله في وقت ما لِعِلّة تقتضي ذلك الحكم. بل ينتقل بانتقال تلك العِلّة الى حكم آخر. وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز آمتثاله. وقال مكي؛ ذكر جاعة، ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فاعفوا وآصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل لا نسخ فيه أهـ.

« وقال بعضهم وعزاه الآلوسي الى الجمهور: إن الآية تدل بعمومها على جواز قتال الترك والحبشة كأنه قيل، فآقتلوا الكفار مطلقاً يعنون أنها ناسخة أو مخصّصة لحديث « اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود كما في الجامع الصغير. وفي فتح الباري أنه رواه من حديث معاوية، قال الحافظ: وكان هذا الحديث مشهوراً بين الصحابة.

وقتال المسلمين للترك ثابت في الصحيحين. وروى أبو داوود من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً « اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة الا ذو السويقتين من الحبشة » وقال العلماء إن هذا يكون قبيل قيام الساعة إذْ يبطل أمن الحرم... قال الخطابي إن الجمع في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وبين هذا الحديث يكون بأن الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيّد، ويجعل الحديث مخصّصاً لعموم الآية كما خصّ ذلك في حق المجوس فإنهم كفرة، ومع ذلك أخذ منهم الجزية لقوله ﷺ: « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »...

وأقول قد غفل هؤلاء الذين حاولوا الجمع بين الحديث والآية عن كون الآية في مشركي العرب الذين لا عهد لهم والذين نبذت عهودهم وضرب لهم موعد الأربعة الأشهر. والحبشة نصارى من أهل الكتاب. وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ الآيات... ومن المجمع عليه التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب. والترك كانوا وثنيين عند نزول هذه الآيات كمشركي العرب ولكنهم لا يدخلون في عموم الآية. ثم إن الأمر بترك قتال الترك والحبشة جاء تحذيراً من بدئهم بالقتال، لما علم الرسول ﷺ أن خطراً على العرب وبلادهم سيقع منهم. والأمر بقتال مشركي العرب في هذه الآيات مبني على كونهم هم الذين بدأوا المسلمين ونكثوا عهودهم كما سيأتي قريباً في قوله: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة﴾ وعلى كون قتالهم كافة جزاءً بالمثل كما قال: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ فكيف يدخل وثنيوا الترك ونصارى الحبشة في عموم هؤلاء المشركين الموصوفين بما ذكر حتى يحتاج الى الجمع بين الآية والأحاديث المذكورة؟ ولا تأتي هنا قاعدة كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو ظاهر، لأن المراد بها أن اللفظ العام يتناول كل ما وضع له سواء وجد ما كان سبباً لوروده أو لم يوجد. ولفظ المشركين في هذه الآيات لم يوضع لأهل الكتاب المعروفين بالقطع ولا لأمثالهم كالمجوس مثلاً.»»[١].

وقال الامام فخر الدين الرازي بعد الشرح التفصيلي لهذه الآية وما تلاها «إن هذه الأوصاف مناسبة لفتح مكة، لأن الذي جرى في تلك الواقعة مشاكِلٌ لهذه الأحوال. ولهذا المعنى جاز أن يقال إن الآية واردة فيه»[٢] ثم يؤكد هذا المعنى فيقول في شرح قوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[٣]... قال القاضي هذا النهي لا يمنع من أن يتبرّأ المرء من أبيه

---

(١) تفسير المنار ١٠/١٩٩ ـ ٢٠١.

(٢) تفسير الفخر الرازي ١٦/٥.

(٣) التوبة ٢٤.

في الدنيا كما لا يمنع من قضاء دين الكافر ومن استعماله في اعماله »[1].

ويقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين...﴾ عام في كل مشرك. لكن السنّة خصت منه »[2]. ثم قال في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾. فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد هي محكمة. أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم. ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم. وقال أبو جعفر النحاس وهذا أصح القولين في السنّة والنظر؛ فأما في السنّة فحدث ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه آمرأة مقتولة فكره ذلك.. ونهى عن قتل النساء والصبيان رواه الأئمة. وأما النظر فإن « فاعَلَ » لا يكون في الغالب إلا من آثنين كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة، والقتال لا يكون في النساء والصبيان ومن أشبههم كالرهبان والزمنى والشيوخ والاجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله الى الشام إلا أن يكون لهؤلاء إذاية. أخرجه مالك وغيره وللعلماء فيهم صور ست:

**الأولى**: النساء إن قاتلن قوتلن...

**الثانية**: الصبيان، لا يقتلون للنهي الثابت عن قتل الذرية ولأنه لا تكليف عليهم فإن قاتل قتل.

**الثالثة**: الرهبان لا يقتلون ولا يُسْترقون. بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم.

**الرابعة**: الزمنى، إلاَّ إن كانت فيهم إذاية فإنهم يقتلون.

**الخامسة**: الشيوخ.

**السادسة**: العسفاء وهم الأجراء والفلاحون، فالأصح في أقوال العلماء أنهم لا

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦/١٩.

(٢) القرطبي ٨/٧٢.

يقتلون وذلك لقول الرسول ﷺ: «الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلنّ ذرية ولا عسيفا».

ولقول عمر بن الخطاب: «اتقوا الله في الذرّية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب....».

ومن هذه الأقوال يفهم أن الأمر بقتال المشركين كافة هو أمر الى المسلمين الأولين بقتل المشركين العرب بعد أن يتموا إليهم عهدهم الذي حدّد لهم ميقاته في الكتاب، أو الذي حدّدوا هم ميقاته بالاتفاق معهم في ميثاق سابق على نزول هذه الآيات.. وان مشركي جزيرة العرب لم يعد أمامهم إلا أحد خيارين بعد انتهاء مدة العهد، أما الإسلام واما الحرب. وهذا الذي كان...

وحصر مشركي جزيرة العرب بهذين الخيارين يرجع إلى ما لهم من امتياز على المشركين كافة بكونهم سدنة اللغة، وفرسانها وبلغاؤها، ونزول القرآن الكريم بلغتهم مع هذه المهلة بعد ما لا يقل عن عشرين سنة، كاف لانكشاف الأمر لهم واتضاح حقيقة الدعوة واستجلاء أسرارها وغوامضها. ولئن لم تنفعهم هذه المرحلة الزمنية الطويلة لاكتساب القناعة ببطلان ما هم عليه وحقّيّة ما يُدْعَون إليه، فلن تجديهم مرحلة أخرى تعطى لهم مهما طالت، لأن معنى ذلك أن قلوبهم غلف، وأنه قد ختم عليها فهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يعقلون. ولن ينفع معهم بعدُ ألا أن يقابلوا بالسيف ويحملوا على الحق حملاً أو يقتلون دونه...

وهذا موقف خاص بهؤلاء. أما المشركون على الاطلاق، مشركو ذلك العصر الذين كانوا منتشرين في بلاد الله.. ومن سيكون بعدهم حتى تقوم الساعة فقتالهم مرهون بإقدامهم هم على قتال المسلمين، أو إيذائهم ومنعهم من القيام بواجب الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإلا فهم أحرار. ومن حقهم أن يختاروا الدين والعقيدة التي يشاؤون لأن الله تعالى يقول: ﴿لا اكراه في الدين قد تبيّن

الرشد من الغي ﴾[1]. ويقول: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[2].

على أنه ليس في موقف الاسلام هذا من مشركي العرب الذي عرضناه آنفاً ما يتعارض مع ما أردنا إبرازه من قبل من اهتمام الرسول ﷺ بإنسانية المشرك وتفريقه بينها وبين الشرك الذي يحمله. فقد أهتم الرسول ﷺ بهذا الجانب الإنساني كل الآهتمام وهيأ له كل الفرص المؤاتية ليستفيد منها ويخرج من شرنقة الكفر والإلحاد ومن القوقعة البهيمية التي يعيشها... ولم ينته إلى هذه الحاسمة إلا بعد أن وصل الى نقطة اليأس الذي لم يعد ينفع معه رجاء أو تصلح معه محاولة..

وعلى كل حال فإن هذا المنهج الحكيم سواء كان مع مشركي العرب أو مع المشركين كافة لا يغيّر من أمر المشرك شيئاً ما دام مصراً على إشراكه فحكمه واضح في نظر الاسلام لا يتغير ولا يتبدّل، كما أن حكم التعامل معه بصورة عامة يبقى هو هو كما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهم ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾[3].

وما أروع ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « قدم الطُّفَيْل ابن عمرو على رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إن دَوْساً قد عَصَتْ وأبتْ فادع الله عليها فظن الناس أنه يدعو عليهم. فقال ﷺ: « اللهم اَهْدِ دَوْساً وآتِ بهم »[4] وقوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن جابر قال: « مَثَلي ومَثَلكم

---

(١) البقرة ٢٥٦.

(٢) الكهف ٢٩.

(٣) الممتحنة ٩.

(٤) فتح الباري ١١/١٦٣.

كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبّهن عنها . وأنا آخذ بِحُجَزِكُم عن النار وأنتم تفلتون من يدي »[١] .

**تمييزه ﷺ بين حق الله وحقه الشخصي:**

وكذلك فإنه ﷺ ظل يميّز بين حق الله وحقه أو بين ما يتصل بالدعوة وما يتصل بشخصه . وإن كان حقه أو ما يتصل به مرهوناً دوماً بما يحبّه الله ويرضاه . ولذلك فإنه لم يرَ غاضباً لنفسه قط ، وإنما كان لا يغضب إلاّ الله . فقد روى البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت « ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً . فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه .. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا إن تُنْتَهَك حُرْمة الله »[٢] . وروى مسلم عن عائشة أيضاً أنها قالت : « ما ضرب رسول ﷺ بيده شيئاً قط لا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله . ولا نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله »[٣] .

ولقد كانت عداوته موجهة في الأصل وأولاً وبالذات للوثنية وما تعبّر عنه ، وللشرك وما ينطوي عليه من مفهوم . أما عداوته للمشرك فقد كانت عداوة قائمة ما دام المشرك ملتزماً بالشرك مستسلماً لمعتقداته ومفاهيمها الباطلة المفسدة متفاعلاً معها بحميّة وعنف . وعداوته مع ذلك تبقى دائرة مع الشرك وجوداً وعدماً ، فهي قائمة ما دام المشرك متمسكاً بشركه ، وهي قابلة للزوال وليتخلّى عنها حالما يتخلّى المشرك عن إشراكه وينسلخ منه .

---

(١) القرطبي ١٦٥/٢٠ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢٣٣/١ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢٣٣/١ .

ولعمري ماذا يكون للموجه الديني أو للمعلم القائد من فضل على من يوجه أو يرشد إذا فقد امتيازات المعلم القائد التي منها قدرة استكشاف أعماق نفس من يخاطب أو يقود ، ومحاولة الترفق به بعيداً عن الحساسيات الشخصية والاجتماعية العارضة ، لالتماس النفاذ إلى قلبه والتمكن من إقناعه أو التأثير عليه بالبيان الشافي وبالقدوة الصالحة وبفضيلة السموّ عن الصغائر والترفع عن الدنايا ورحابة الخلق وسعة الصدر والاستعداد للتحمل.. فالدين ليس علماً يحفظ ومعارف تجمع وأخباراً تختزن. بل هو ممارسة تعانى. وتطبيق يكتسب. وعمل صالح يعاش، ينتفع به صاحبه، وينتفع به الناس من حوله...

وما لم يكن المعلم القائد مدركاً لمهمته حق الادراك مستوعباً لأبعادها وحدودها ، مهيئاً كل التهيؤ للانسجام معها عطاءً وتضحية وصبراً وجلداً ، فهو معلم مكتوب له الفشل ولمهمته الضياع والخسران.

ولقد أحاط الرسول ﷺ بفضل الله وعونه ورعايته بمبادىء رسالته وأهدافها وعرف أبعادها وأدرك ضخامة مسئوليتها.. وكان من قبل قد أعدّه الله تعالى خير اعداد لتكون له أبرز الخصال الحميدة وأرقاها. فكان سلوكه وتعامله مع الناس، والمشركون منهم، سلوكاً حكيماً.. ولقد صدع بأمر الله تعالى فدعا قومه بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وصبر على إساءاتهم وتحمل غلظتهم وقساوة قلوبهم. ولم يعرف قلبه اليأس من إيمانهم في يوم من الأيام، بل ظل يحاورهم ويدعوهم ويبصرهم بخطأ ما هم فيه وضلاله، وآستقامة ما قد جاءهم به وجلاله. ولقد كان صدودهم وتعنتهم وتصديهم لا يزيده إلا إصراراً وإقبالاً عليهم. ولم يعرف عنه يوماً أنه قد سئم دعوتهم وملّها، أو أنه قسا عليهم أو قابل أساءتهم بمثلها أو اطلق لنفسه العنان فاستمطر عليهم لعنة الله وغضبه كما فعل نوح عليه السلام من قبل عندما قال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً

إنك إن تذرهم يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّارا رب أغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾[١].

بل على العكس من ذلك فقد ترفق بهم ورق في معاملتهم وظل ينشد لهم الخير ويتمنى لهم الطمأنينة والسعادة ويقابل اساءتهم بالصفح والعفو، ودعا لهم بالهداية أو بالغفران لأنهم لم يكونوا يعلمون، وآرتقب أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً. ويوم الفتح المشهود وقف فيهم يخاطبهم وهو على غاية التمكّن من رقابهم فقال: «ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا نقول خيراً ونظن خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال فإني أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[٢].

وكان ﷺ لما اقتضاه الأمران يشتد معهم لصالحهم وصالح الإنسانية ودفاعاً عن رسالة الحق والهدى التي يحملها لا يتوانى عن تنفيذ أمر ربه الذي يقول له: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾[٣]. فجاهدهم بقوة وقاتلهم ببأس وصبر وغلظة، حتى انكسرت شوكتهم ولانت عريكتهم وانفتحت له قلوبهم واستسلموا له طوعاً وكرهاً، فلم يكن أمامهم وهم عرب الجزيرة إلا أحد موقفين: إما الاسلام وإما القتال والحرب كما سبق وأوضحنا. فهم حملة لغة القرآن وفرسان حلبتها، فإن صدقوا، وقد صدقوا بالفعل، صاروا مادة الاسلام وحملة لوائه ورواد فكره وحركته ودعوته. ولذلك ورد عنه قوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله تعالى»[٤].

---

(١) نوح ٢٦ - ٢٨.

(٢) الامتاع ١/٣٨٦.

(٣) التحريم ٩.

(٤) فيض القدير ٢/١٨٨.

## مطلب الرسول من الوثنيين:

لقد كان للرسول ﷺ عند المشركين مطالب وأهمها وأعلاها: أن يمحوا الوثنية والشرك من قلوبهم محواً كاملاً، وأن يقيموا على انقاضهما الاسلام لله وحده، والإيمان بوحدانيته حتى اليقين والخضوع لشريعته. وأن يشغلوا قلوبهم بمحبة الله إشغالاً كاملاً لا يسمح بأن يكون فيه فراغ لحب أحد سواه أو شيء آخر.

## الشرك ومحبة الله:

والشرك ومحبة الله لا يلتقيان. ذلك أن محبة الله تعالى هي أولى أصول الدين وأصلب ركائزه. فهو سبحانه الخالق وهو الرازق والمدبّر والمعين وهو القاهر فوق عباده. بيده قلوبهم وآجالهم وأرواحهم. وإذا كان للنفوس في الحياة من تقدم وتأخر وصحة ومرض، وإذا كان لها من نموّ وفرح وطمأنينة وسكون. وإذا كان للعقول من ضياء وانكشاف وفهم وإدراك لكل صنوف المعاني والمشاعر والاحاسيس وغير ذلك، فكل ذلك بفضل الله تعالى ونعمته.

ومن هنا فإن المحبة كما قال ابن القيم إذا لم تكن لله أو في الله أو معينة على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته تصبح محبة ضارّة ومفسدة لأنها في هذه الحال أما محبة مع الله أو محبة لما يبغضه الله أو محبة تنقص محبة الله أو تصرف عنها [1].

وكلما تجافى الإنسان بقلبه وفكره عن خالقه كلّما دخل في حظيرة الشرك. وآرتبط ببعض حبائله، ويظل هذا المعنى خفياً في نفسه مستكِنّا ضعيفاً ما برزت في قلبه أصول التوحيد وحقائق الإيمان بالله الكبير المتعالي. وما التزم بطاعة أوامر الله والبعد عن محارمه ومكارهه. ولكنه على النقيض يستفيق ويعتز ويقوى كلما أهمل أوامر الله وعصاها وأتى محارمه وعدا على حدوده. والمشرك في الحقيقة انسان قد خلا قلبه من محبة الله وفقد ضياء الإيمان ونور اليقين؛ وذلك لانصرافه عن

---

(١) اغاثة اللهفان ٢/١٤٠.

طاعته، وعصيانه لأوامره وطاعته لنواهيه، واجتراحه للسيئات وانغماسه برغائب نفسه وشهواتها حتى جعل من ذاته عبداً للشيطان. وكان الشيطان وليّه. ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ وبذلك فرغ قلبه من حب الله وانشغل بما حال بينه وبينه.

ويوم خلق الله آدم وأمر ابليس بالسجود له فعصاه واستكبر وكان من الكافرين، أخذ على نفسه بعد أن انظره الله تعالى إلى يوم يبعثون، أن يغوي ذرية آدم وأن يعدهم ويُمنّيهم وأن يقعد لهم في صراط الله المستقيم فيغريهم ويزين لهم الباطل حتى يكفروا بالله ويجحدوا نعمه عليهم.

وقد حذرنا الله تعالى من فتنة الشيطان هذه ومن اتخاذه ولياً من دون الله، ومن عبادته فقال: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنهم لكم عدوٌ مبين﴾ [١]. وقال: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [٢]. وقال: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [٣] وقال ﴿افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بدلاً﴾ [٤].

والمشركون والوثنيون هم أولئك الذي استجابوا للشيطان فسقطوا في طاعته وانصرفوا الى باطله عن حقائق الله وعن محبته... فبداية الشرك إذن كانت في بداية خلو قلب الانسان في رؤية الله ومراقبته ومحبته. وذلك بانشغاله بالاستماع الى نداء الشيطان والانجذاب الى إغرائه وأغوائه واضلاله ثم بخضوعه اليه. وفي مثل هذه الحال يصل الانسان الى وضع يستسيغ معه تقبل الانصراف عن معالم الهدى

---

(١) يس.
(٢) فاطر.
(٣) الاعراف ٢٨.
(٤) الكهف ٥٠.

وصوى الحق والجرأة على تغيير فطرة الله التي فطره الله عليها. ومن أجل هذا أمر الله نبيّه بالاستقامة على الدين والتزام حدوده، فقال ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوه ولا تكونوا من المشركين من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعاً كلّ حِزْبٍ بما لديهم فرحون﴾ (١).

## الشرك قنطرة الفسوق والفساد في الأرض:

ولئن كان الشرك ثمرة مداومة العصيان لأوامر الله واقتحام حدوده، نتيجة انشغال القلب عن محبة الله تعالى بشهوات النفس وغرائز الجسد ولذائذه، فالشرك بعد يصبح مَفْرَخة الفسوق. وقنطرة كل شر وإثم. ذلك أن المشرك قد اتخذ الشيطان وليّاً له من دون الله يستجيب له ويخضع لسلطانه تماماً كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون﴾ (٢) وقد تعبّد له وجعل في أذُنَيْه وقراً وعلى بصره غشاوة فهو يسمع ولكنه لا يميز. ويبصر ولكنه لا يدرك. يقول الله تعالى: ﴿وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون﴾ (٣). ويقول: ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (٤) بل إنهم لفي سكرة غامرة وغفلة كاملة سلخت عنهم الكثير من خصال الأحياء واضفت عليهم الكثير من أوصاف الأموات. يقول الله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الأموات إن الله

---

(١) الروم ٣٠ ـ ٣٢.
(٢) النحل ١٠٠.
(٣) الاعراف ١٩٨.
(٤) الاعراف ١٧٩.

يسمع من يشاء، وما انت بمُسمعٍ منْ في القبور ﴾[1]. وفي أول هذه الآية وآخرها تمثيل للمؤمن والكافر فكأنه يريد أن يقول لنا سبحانه وتعالى وما يستوي أحياء القلوب العامرة بالإيمان بالله ورسوله ومحبتهما، مع أموات القلوب التي غلبها الكفر والعبودية للشيطان.

وإذا بلغ الإنسان هذا المآل استوى عنده الخير والشر والحق والباطل والطاعة والمعصية، وأقبل على الحياة يسرح فيها ويمرح ويأكل ويشرب لا يبالي بحرمات ولا بحدود فتكثر خطاياه وتستبحر معاصيه وتظلم حياته ويموت ضميره.

وكذلك الشيطان إذا تمكّن من قلب العبد أحاط به وأغلق عليه منافذ النور حتى لا يرى ولا يسمع ولا يحس إلا بما يشاء له ويحب ولا منقذ له، لأنه استنام له وأعرض عن ذكر الله خلافاً للمؤمن العابد لله، فإنه كما قال تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدّونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾[2] ذلك لأن المؤمن استجاب لله وتحصّن به، فإن نزغه من الشيطان نزغ استعاذ بالله منه واستجار به. يقول ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه «يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولْينتهِ»[3].

وعلى النقيض من المشركين فإن الشيطان قد يئس من أن يتمكن من إضلال المؤمنين، وإن لم ييأس من التشويش على قلوبهم وأفكارهم فهو لذلك ناشط بإلقاء الوساوس على قلوبهم أملاً بالوصول الى شيء، والله مع عباده الصالحين يعينهم ويحصّن قلوبهم ويدفع عنهم كيد الشيطان. ولذلك فإنه سبحانه يقول: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[4]. ويقول: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين

---

(١) فاطر ١٩ ـ ٢٢.

(٢) الاعراف ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) القرطبي ٣٤٨/٧.

(٤) الحجر ٤٢.

آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾. وقد ورد في الصحيح أن نفراً من الصحابة قالوا لرسول الله ﷺ: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال «أوجدتموه»؟ قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان رغماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

وإن من تحصين الله تعالى قلوب عباده المؤمنين ما علّمهم قوله كل يوم وليلة مرات عديدة يسألونه فيه أن يهديهم صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم وهداهم واجتباهم ورحمهم وجنّبهم طريق المغضوب عليه والضالين، وما علّمهم اياه أيضاً من الاستعاذة به من شرّ ما خلق ومن شرّ غاسق إذ وقب ومن شرّ النفّاثات في العقد ومن شرّ حاسد إذا حسد ومن شرّ الوسواس الخنَّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس. ثم ما علّمهم إياه من مداومة اللجوء إليه بالسؤال والرجاء والتضرّع والسؤال في الوقت الذي هو فيه سميع مجيب. روى أبو سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها احدى ثلاث: اما ان يعجّل له دعوته، وإما أن يدّخر له، وإما أن يكفّ عنه من السوء بمثلها». قالوا إذن نكثر قال «الله أكثر»[1].

## الإذن بقتال المشركين:

ولقد لبث الرسول ﷺ أربعة عشر عاماً يتحمل مع أصحابه صنوف الأذى والصدّ والكيد والعدوان من المشركين، لا تلين له قناة ولا يستكين ولا يضعف، ولا يتململ ولا يضجر ولا يخرج عن حدود الصبر والصفح التزاماً بأمر ربه الذي كان يرعاه ويوجه مساره وهو الذي قال له: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما

---

(١) القرطبي ٢/٣١٠.

بينهما إلا بالحق، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ (١) وقال: ﴿فوربك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (٢) وقال: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (٣).

ولم يأذن الله تعالى لرسوله بقتال المشركين والرد على أذاهم ومصادمتهم بالقوة، إلا بعد هجرته ﷺ بسنة وبعد أن أنزل عليه من آيات النهي عن القتال ما يربو على سبعين آية.

ولما أذن الله تعالى له ﷺ بالقتال كان يضعه في أجواء أسباب هذه المشروعية. ويبيّنها له بأنها لدفع الظلم، ومنع الفتنة في الدين وردّ العدوان والبغي على المؤمنين والدعاة إلى الله منهم بخاصة، ولحماية الفرد المسلم والجماعة المسلمة والوطن الذي يعيشون فيه. يقول الله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربّنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصُرَنّ الله من ينصره إنّ الله لقوي عزيز﴾ (٤).

قال ابن عباس: «إن هذه الآية هي أول آية نزلت في القتال. ولقد تبع ذلك أن الله تعالى أجاز المسلمين ايضاً به في الأشهر الحُرُم التي كان القتال فيها محرّماً في التقاليد العربية. قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وأخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبرُ من القتل﴾(٥) ولقد بين الله تعالى في هذه الآية أيضاً العلة في

---

(١) الحجر ٨٥.
(٢) الحجر ٩٣ - ٩٤.
(٣) النحل ١٢٥.
(٤) الحج ٣٩ - ٤٠.
(٥) البقرة ٢٠٧.

أباحة القتال للمسلمين في الأشهر الحرم وكشف عن مبررها بأنه اجتراح المشركين في الشهر الحرام وسواه ما هو أكبر من القتال وأشد فظاعة ونكراً كالصدّ عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام والعدوان على أهله وسكان بلده واخراجهم منه بغياً وظلماً.

وأخيراً وفي السنة الثامنة بعد الهجرة، وبعد أن فتح الله تعالى على رسوله مكّة المكرّمة ونصره على قريش التي نكثت العهد ونقضت الميثاق الذي واثقته عليه يوم الحديبية، أمره بقتال المشركين ولكن بنصوص ظاهرة الاطلاق والتعميم. يقول الله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أن الله مع المتّقين﴾(١) ويقول: ﴿فإذا آنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد﴾(٢).

والحرب في ذاتها أذى وشر، لا بد فيها من سفك الدماء وأزهاق الأرواح، وتخريب المجتمعات وتدمير المؤسسات ومظاهر العمران. ولكنها قد تكون شراً لا بدّ منه إذا وجهت لتكون في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته وحماية شرعه وحراسة ديار الأسلام وشعوبه. يقول الله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾(٣).

وهكذا فإن القتال في الاسلام لا يخرج مطلقاً عن إطار هذه المعاني؛ جهاد غير المسلمين من الكفار والمشركين دفاعاً عن الذات والجماعة، وقتال المرتدين والبغاة وهم الذين يخرجون على الامام يبغون خلعه أو التمرّد على طاعته، وقتال قطّاع الطرق والمحاربين وهم الذين يعتدون على المارّة لأخذ أموالهم قهراً.

---

(١) التوبة ٣٦.

(٢) التوبة ٥.

(٣) البقرة ٢١٦.

**الاسلام والحقد الديني:**

ولئن كان الاسلام قد أجاز للمسلمين القتال للأسباب والمبرّرات السالفة الذكر. فإنه مع ذلك ينبغي التأكيد هنا بأنه في منطلقه الأساسي اَستَلَّ من قلوب أتباعه كل صفات الحقد الديني على مخالفيهم في الدين وبخاصة أهل الكتاب، وأقام فيها نحوهم على العكس مشاعر الزمالة الإنسانية. فالناس إما إخوة في النسب وإما إخوة في الانسانية والخلق وإما إخوة في الوطن وإما أخوة في الدين. ولئن كانت أخوّة الدين مقدّمة في نظر الإسلام على جميع الاخوات، غير أنها تبقى أخوة بارّة ورحيمه. وتتحرّك في اطار تثبيت معاني الأخوة النافعة والمحبّة الحانية. ولذلك فهو لم يمنع اتباعه من التعايش مع مخالفيهم في الدين أيّـاً كانت عقيدتهم ولكن بشروط بينها رب العالمين بقوله: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [١] وبقوله: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة والله قدير والله غفور رحيم﴾ [٢].

ولا ريب أن في هذه الآية ما فيها من تحمّل معنى السماح بمخالطة المخالفين في الدين في الحدود التي لا تتعارض مع كرامتهم وعبادتهم وعقائدهم وأخلاقهم. وإلا فكيف يمكن تحقق مضمونها بجعل المودة قائمة بينهم؟ قال مقاتل: «لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شدّدوا في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقاربهم والبراءة منهم فأنزل الله تعالى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ وذلك بميلهم الى الاسلام ومخالطتهم مع أهل الاسلام...» [٣]. والله تعالى

---

(١) الممتحنة ٨ ـ ٩.

(٢) الممتحنة ٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٣٠٣/٢٩.

قادر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودّة والتفاهم وتقريب النفوس.

على أن الاسلام حتى في حال سماحه لأتباعه بمقاتلة مخالفيهم دفاعاً عن النفس والكيان والارض ومؤسسات الوطن التي تدخل كلها في مفهوم الايمان بالله والاسلام له، لم يجز لهم أن يبلغوا بنفوسهم مبلغ الحقد وشحنها بالضغينة وتعميق العداوة وتأصيلها .فهو دين الاسلام وَالصفح والعفو والسماحة . وكل هذه المعاني لا تلتقي في شيء مع تعميق العداواة مع الناس وبخاصة وانه قد جاء ليطهر قلوبهم من لوثات الشيطان ويُبردها ببرد اليقين.

وكل وقائع سيرة الرسول، وهو رائد الاسلام ونموذجه الاعلى والاسمى، تدلّ بما لا لبس فيه ولا غموض على هذا المعنى وتؤكده. وبخاصة ما حدث يوم أحد. فقد آزدهت قريش بنصرها وذهبت بعض نسوتها، بعد أن شهدت شموخ شبابها بعزّة الغلبة والانتقام، يمثلن بقتلى المسلمين، يَجْدَعن الآذان والأنوف. حتى روي أن هند ابنة عتبة وامرأة أبي سفيان « جعلت لنفسها منها قلائد وأقراطاً. وبقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعلته النسوة ممن معها، بل ما فعله الرجال كذلك من الفظائع، أن تبرأ أبو سفيان من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه. بل قال يخاطب أحد المسلمين: انه قد كان في قتلاكم مُثْلٌ، والله ما رضيتُ وما سخطت وما نهيت وما أمرت »...

ولما جاء المسلمون بعد انحسار اجواء المعركة لدفن قتلاهم كان رسول الله ﷺ في مقدمتهم يتلمّس أيضاً عمه حمزة. فلما رآه قد بقر بطنه ومثل به حزن من أجله أشد الحزن وقال: « لن أصاب بمثلك أبداً. ما وقفت موقفاً قط أغيظ اليّ من هذا » ثم قال: « والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثّلَنَّ بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب » وإذا بالوحي يتنزّل من السماء يكفكف دمع الرسول ﷺ ويخفف ألمه ويذكره بالحق فيقول: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن

صبرتم لهو خيرٌ للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون﴾ (١) فقال ﷺ نصبر ولا نعاقب» (٢) وكفر عن يمينه. ثم إن الله تعالى ختم تلك الآيات بقوله ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (٣) يقول الامام الفخر الرازي في شرح هذه الآية: «إشارة الى الشفقة على خلق الله. وذلك يدل على أن كمال السعادة للإنسان في هذين الأمرين: أعني التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله. وقد عَبَّر عنه بعض المشايخ فقال: «كمال الطريق صدق مع الحق وخُلُق مع الخَلْق» وقال الحكماء كمال الإنسان في ان يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به. وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له عند القرب من الوفاة أوصِ، فقال إنما الوصية من المال ولا مال لي. ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

ولقد ظلم كثير من الكتاب والمنكِّرين الغربيين الاسلام حين وصفوه بأنه دين متعطّش للدماء لأنهم بذلك يفترون عليه. لأنه ما عرف عنه يوماً أنه دين يهدف الى اغتصاب فكر الناس واقتناص قلوبهم وإكراههم على الاعتقاد به. بل الذي عرف عنه أنه دين حرّية الاعتقاد والدعوة بالحجة والمنطق والبرهان. يقول الله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (٤) ويقول ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ (٥) ويقول: ﴿قل للذين أوتوا الكتاب والأمّيين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ (٦).

---

(١) النحل ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) القاسمي ١٠/١٧٩.

(٣) النحل ١٢٨.

(٤) يونس ٩٩.

(٥) الاسراء ١٢٥.

(٦) آل عمران ٢٠

## الاسلام والسيف:

وخلافا لما يزعمه المتنطعون والمفترون، فإن الإسلام لم ينتشر تحت ظلال السيوف، بل بما حمله للناس من مفاهيم الحق والعدالة والمساواة، وما باداهم به من جميل الأخلاق وحسن المعاملة وطيب الرعاية. فكان مثلاً رائعاً في الالتزام بحرية الحياة الدينية لجميع الناس في ضوء نصوصه الكثيرة التي أشرنا الى بعضها آنفاً. كما كان مثلاً فذاً في الصفح والتسامح والترفع. وإن من أصدق البراهين على صحة هذا القول بقاء كثير من الفرق والجماعات المسيحية وغير المسيحية في الأقطار التي ظلت قروناً محكومة بالشريعة الاسلامية، بقاؤها في وطنها تمارس شعائرها وطقوسها في كنائسها ومعابدها التي يرجع الكثير منها الى عشرات القرون.

يقول المفكر «أرنولد» «ظهر أن الفكرة التي شاعت بان السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الاسلام بعيدة عن التصديق.. وإن السيف إذ كان يمتشق لتأييد قضية الدين فإن الدعوة والاقناع وليس القوة والعنف، كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه»[1].

والقرآن الكريم يعلّم النبي ﷺ ويوجهه الى ما ينبغي أن يكون عليه منهجه في الدعوة والسلوك مع الناس فيقول له: ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾[2] ويقول له: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾[3] ويقول له: ﴿إن أنت إلا نذير انا أرسلنا بالحق بشيراً ونذيراً﴾[4].

وحروب الاسلام كلها التي جرّدها الرسول ﷺ في وجه قريش ومشركي العرب ووجه فارس والروم لم تكن لنشر العقيدة بالسيف والقهر والاكراه. بل

---

(١) عن كتاب آثار الحرب في الفقه الاسلامي للدكتور وهبه الزحيلي ص ٧٢.
(٢) الغاشية ٢١ ـ ٢٢.
(٣) الشورى ٤٨.
(٤) فاطر ٢٣ ـ ٢٤.

كانت من جهة لردّ عدوان المعتدين على حريّات الناس، والحاقدين على الاسلام الجديد وعلى رسوله ﷺ، وكانت من جهة ثانية لكف أذى أولئك الذين يكفرون بحرية الناس في اختيار العقيدة التي يشاؤون والدين الذي يحبّون. ويستكثرون عليهم أن يؤتيهم الله من فضله.

ولو كان مسلك الاسلام في نشر دعوته هو مسلك القهر والتسلط بالسيف والقوة، لما لجأ النبي ﷺ الى اطلاق سراح القرشيين عقب انتصاره عليهم يوم فتح مكة وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ولما قبل الجزية من صاحب «أيلة» ومن أهل «الجرباء»، ولما صالح أهل «خيبر» وترك بني «النضير» يهاجرون للبلد الذي يشاؤون.

إن انتشار الاسلام كان أولاً وقبل كل شيء بما كان يحمله من تعاليم وشرائع وآداب وسلوك. وكان بالعقيدة الواضحة الصادقة. ثم بسبب ما كانت تعانيه الشعوب الذين دخل عليهم، من ظلم حكامهم وتعسفهم وبغيهم...

ولم يكن انتشاره في حال قوة حَمَلَتِه وشدة بأسهم واجتماع كلمتهم وعظمة سلطانهم، بل كان أيضاً في حال ضعفهم وتفرّقهم وزوال هيبتهم.. فقد ثبت أنه في الوقت الذي تمزّقت فيه دولة الإسلام وتمكّن منها اعداؤها وأغار عليها التتار والمغول والأتراك، يسقطون معقلاً بعد معقل ويهدمون صرحاً إثر صرح، ويجهزون على البقية الباقية مما لبث بين أيدي المسلمين من قوة وبأس ومهابة سلطان... في هذا الوقت كان الاسلام العظيم يخترق القلوب ويقتحم قلاعها ويؤثر حتى على هؤلاء الذين تسلطوا وتمكنوا من أتباعه.. فدخل التتار والمغول والاتراك في حظيرة الاسلام واعتنقوا عقائده وطبقوا شرائعه وأحكامه، وهم أهل السلطة وأرباب البأس والقوة والهيمنة. وانقلبوا حماته والمجاهدين في سبيل دعوته...

قال ابن تيمية في آية: ﴿لا اكراه في الدين﴾ «جمهور السلف على أنها ليست منسوخة ولا مخصوصة. وإنما النص عام. فلا نكره أحداً على الدين. والقتال لمن

حاربنا . فإن أسلم عصم ماله ودمه . وإذا لم يكن من أهل القتال فلا نقتله . ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحداً على الإسلام لا ممتنعاً ولا مقدوراً ولا فائدة في اسلام مثل هذا . لكن من أسلم قبل منه ظاهر الاسلام »[1].

وهكذا يتأكد أن الاسلام دين سماحة ورفق وحكمة . ودين تفاهم وانفتاح على الخير والحق والبر بكل الناس ما لم يبدأوه بعدوان ويعلنوا عليه الحرب . وعند ذلك يصبح القتال واجباً . وهو ما ثبت نص القرآن فيه بقوله تعالى : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾[2] وقوله : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾[3] يقول الشوكاني : « والعلماء متفقون بأن الجهاد فرض على الكفاية بمعنى أنّ فعله يطلب شرعاً من مجموع المكلفين لا من كل مسلم بعينه ، فإذا قام به قوم من المسلمين سقط الوجوب عن الباقين ولم يأثموا بتركه » ويقول الشافعية « وجوب الجهاد وجوب الوسائل والمقاصد . إذ المقصود بالقتال إنما هو الهداية وما سواها من الشهادة . وأما قتل الكفار فليس مقصوداً . حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل بغير جهاد كان أولى من الجهاد »[4].

بل إن اتجاهات الفقهاء بمجموع عباراتهم تنضح بهذا المفهوم ، وتؤكد بأن الحرب في الاسلام ضرورة اجتماعية للدفاع عن الذات ولمنع البغي وصرف الظلم وإقامة العدالة بين الناس وصون الحق فيهم . وهي بهذا المعنى جهاد في سبيل الله ماضٍ إلى يوم القيامة . . .

## الاسلام ومشركو العرب :

أما شدة الاسلام على مشركي العرب وعبدة الأوثان منهم في الجزيرة العربية ، حيث لم يقبل منهم إلاّ الاسلام أو السيف . فقد كانت لحكمة سبق وأشرنا اليها ،

---

(١) رسالة القتال في مجموعة رسائل ابن تيمية ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٢) التوبة ٣٦ .

(٣) الانفال ٣٩ .

(٤) عن كتاب آثار الحرب ص ٩٠ .

وهي القصد الى اقتلاع جذور الوثنية المنافية لكرامة الإنسان، والقضاء على الشرك الذي هو وكر الخرافات والأساطير وباعث نزعة السيطرة والظلم والاستبداد في الجزيرة وفي قبائلها أولاً وبالذات، لأنهم سيكونون نواة الاسلام ولسانه وقطب رحاه ومدار نهضته واشراقه على العالم كله.

وبالإجمال فإن جمهور الفقهاء من أحناف وحنابلة ومالكية وشوافعة في قول ملتقون على أن علّة القتل وسببه في نظر الإسلام هي المقاتلة. وكل ما كان مظنّة له[1] «فلا يقتل شخص لمجرّد مخالفته للاسلام أو لكفره، وإنما يقتل لاعتدائه على الاسلام». وأما حديث ابي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم وهو قوله ﷺ: «أمِرْت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله» فهو بمعنى أنه ﷺ لم يؤمر بقتالٍ إلا إذا كان لهذه الغاية المذكورة في الحديث وهي بقاء الناس على شهادة ان لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله واستمرارهم عليها. ولا يجوز أن يكون معناه أنه أمر بمقاتلة كل واحدٍ من المشركين حتى يصل الى ذلك الاعتقاد. لأنه يختلف مع النص ومع مسيرة الرسول ﷺ ومع أجماع الأمة التي تثبت كلّها أنه لم ينقل عنه ﷺ قتل الكفار لأنهم كفار، بل على النقيض فقد أشتهر عنه أنه كان يسالم من سالمه ولا يعادي كلّ من عاداه، وأنه صالح أهل الكتاب على الجزية وأبقاهم على عقيدتهم. وعلى ذلك مضى أصحابه من بعد في قتالهم مع المجوس ومع أهل الكتاب جميعاً.

---

(١) فتح القدير ٤/٢٩١

# الفصل الرابع

# موقف الإسلام من الشفاعة

١ - بين يدي البحث
٢ - تعريف الشفاعة
٣ - عقيدة اليهود وقدماء المصريين فيها
٤ - مبدأ الشفاعة عند العرب
٥ - موقف الإسلام من هذا المفهوم للشفاعة
٦ - موقف الاسلام من الاستشفاع أصلاً

**بين يدي البحث:**

قد يقف القارىء عند مطالعة هذا الموضوع، ويتساءل عن مدى آرتباطه بموضوع البحث ككل، ومن حقه ذلك. فالشفاعة شيء والوثنية شيء آخر، وقد لا يكون بينهما لدى النظرة العاجلة أدنى صلة أو وشيجة..

ودفعاً لهذا التوهم شئنا أن نقرر لموضوع الشفاعة هذا البحث، لأنها في الحقيقة ونفس الأمر ليست كما يتبادر الى ذهن القارىء لأول وهلة، بل هي ركيزة من ركائز العقيدة الوثنية التي استفحلت في شعوب الجزيرة العربية وتأصلت في نفوسهم، بل هي قطب رحاها وقاعدتها التي استوت عليها وتفرّعت منها.

**تعريف الشفاعة:**

قالَ الراغب الاصفهاني: «والشفاعة الانضمام الى آخر ناصراً وسائلاً. وأكثر ما يستعمل في آنضمام من هو أعلى حُرْمة ومرتبة الى من هو أدنى»[1]. وهي على العموم السؤال في التجاوز عن الأخطاء والذنوب[2]. وقد اعتاد الناس تعاطيها فيما بينهم دفعاً لضرر أو جلباً لمنفعة. وكثيراً ما تكون الشفاعة حسنة. وكثيراً ما تكون سيئة. وقد حذر الله تعالى من الشفاعة السيئة وأثنى على الشفاعة الحسنة

---

(١) مفردات الفاظ القرآن ص ٢٧٠.

(٢) دائرة معارف القرآن محمد فريد وجدي ٥/٤٠.

فقال : ﴿من يَشفع شفاعة حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها، ومن يشفَع شفاعة سيّئة يكُنْ له كفلٌ منها وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾[1] ومن شفع شفاعة حسنة يقصد منها أن يصلح بين اثنين متخالفين متخاصمين استوجب الثـواب والأجـر، ومن شفع شفاعة سيئة يقصد من ورائها ترجيح باطل أو ترويج محرّم استوجب سخط الله وعقابه. والشافع فيما يجوز مأجور من الله تعالى ولو لم يُشفّع من أحد. لأن الله تعالى يقول ﴿من يشفع﴾ ولم يقل ﴿يشفّع﴾ وفي صحيح مسلم « اشفعوا تؤجروا وَلْيَقْضِ الله على لسان نبيّه ما أحب ».

## عقيدة اليهود وقدماء المصريين فيها :

وقد جرى البعض في الأمم الغابرة، وفي مقدمتهم اليهـود وقـدمـاء المصريين واليونان، على أن يقيسوا امور الآخرة على أمور الدنيا، فتوهموا بأنه كما يمكن للبعض ان يستشفع في الدنيا ببعض لدى سلطان أو مسئول بماله عنده من مكانة للتخلص من عقوبة او تخفيفها، او لنيل مثوبة، يمكن لهم أيضاً أن يستشفعوا عند الله ببعض الصالحين لدفع عقوبة او لنيل مثوبة.

ويعتقد اليهود أنهم بانتسابهم الى الأنبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم إلاّ أيامـاً معدودات، لأنهم أبناء الأنبياء، والأنبياء بما لهم من جاه ومكانة رفيعة عنـد الله لا يسعهم ان يخلوا أبناءهم وأتباعهم للنار يُكْوَوْنَ بلهيبها ويذوقون عذابها الأليم. ثم تطور اعتقادهم هذا مع تقلب الزمن إلى ان انتهى بهم الحال الى القول بشفاعة الاحبار لمن ينتسب اليهم..

## مبدأ الشفاعة عند العرب:

وقد ذهب أقوام آخرون الى مثل هذا القول ولا داعي للتوسع في الحديث فيه، وانتشر في الأمم يأخذ بعضهم عن بعض، حتى تسرّب أيضاً الى القبائل العربية

(١) : النساء ٨٥.

في الجاهلية وقبل ظهور الاسلام، فشاعت فيهم عبادة الاوثان والاصنام من مدخل مفهوم الشفاعة هذا.

وقد روى ابن اسحاق أن بني اسماعيل وجرهم، من ساكني مكة. ضاقت عليهم مكة هذه فانتشروا في البلاد يتفسّحون فيها ويلتمسون المعاش. ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة، وحيثما حلّوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وما أعجبهم من حجارة الحرم خاصة، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم واسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من قبلهم من الضلالات، وانتحوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقي فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم للكعبة والطواف بها والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، وهَدْي البُدْن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه».

وكان أول من غيّر دين ابراهيم واسماعيل ونصب الأوثان وسيّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحام عمرو بن لحي. وقد روي عن ابن عباس انه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يَجر قصبته ـ يعني أمعاءه ـ في النار» وقد قال رسول الله ﷺ عمرو بن لحي أول من جعل البحيرة والسّايبة والوصيلة والحام ونصب الأوثان حول الكعبة وغير الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام»[1].

---

(١) الأزرقي الجزء الاول ص ١١٦. هذا وفي تعريف البحيرة وما بعدها خلاف بين العلماء. وأبرز التعاريف لها هو ان البحيرة هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإذا كان الخامس بحروا أذنها اي شقوها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها. فاذا ماتت حلت. والسائبة البعير يسيّب بنذر يكون على الرجل ان سلمه الله من مرض أو بلّغه منزله ان يفعل ذلك. فلا تحبس من رعي ولا ـ

ومهما يكن من أمر فإن عبادة العرب للأوثان لم تخرج في عمقها وأصولها عن مفهوم الشفاعة الذي أثبتناه سابقاً لليهود وغيرهم من الأمم الغابرة. فقد نقل أنهم كانوا يثبتون الشفاعة لآلهتهم عند الله فكانوا يقولون: « تلك الغرانيق العلي وان شفاعتهن لترتجى »، وكانوا يتخذون الاصنام أولياء لهم لتقربهم الى الله زلفى. وقد فعلوا كما فعل سواهم من السابقين، فقاسوا الغائب على الشاهد وما عند الله على ما عند الناس، فضلُّوا كما ضلَّ غيرهم، وانحرفوا رغم أنهم كانوا إن سئلوا عمّن خلق السماوات والارض أو من خلقهم أجابوا بأنه هو الله. والله تعالى يقول في هذا ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى﴾[١] ويقول: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولُنَّ الله﴾[٢] ويقول: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنى يؤفكون﴾[٣].

بل إن بعض العلماء ليرى ان مفهوم الشفاعة هذا قد تمادى انتشاره على الدهر حتى جاء عصرنا هذا فكان فيه كثير من الناس، حتى المسلمين منهم يعتقدون بما هو شبيه لذلك. فقد ذكر الامام محمد رشيد رضا في تفسيره نقلاً عن الامام الشيخ محمد عبده قوله: « إن بعض المسلمين من المصريين كانوا حتى عهده يعطون لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمّونه « أجرة المعدّية » أي اجرة نقله الى الجنة والشفاعة له بدخولها.

## موقف الإسلام من هذا المفهوم للشفاعة:

ولقد أكثر الله تعالى في كتابه الكريم من طرح مفهوم الشفاعة هذا في مناسبات

---

= ماء ولا يركبها أحد. والوصيلة هي من الغنم التي تلد انثى بعد انثى فإنها تسيّب وقالوا وصلت أخاها فلا تذبح وكان لحمها حراماً على النساء، والحام هو الفحل من الابل اذ انتج من صلبه عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء.

(١) الزمر ٣.

(٢) الزمر ٣٨.

(٣) الزخرف ٨٧.

عدة وردّه رداً حاسماً لان الله تعالى يختلف عن مخلوقاته. فهو مالك الملك. وهو بذاته غني عن ان يتشفع أحد بين يديه لأحد إلا أن يكون ذلك بإذنه. لأن الشفاعة في حدّ ذاتها لا تقبل من أحد إلا لرغبة أو رهبة. والله تعالى لا يرجو أحداً ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد. والشفيع يشفع لأحد وجوه ثلاثة: « إما لإخبار من يشفع عنده بما لا يعرفه حتى يكون ذلك مبرّراً للرجوع عن موقفه. وهذا غير جائز في حق الله تعالى، لأنه يعلم السرّ وأخفى ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وإما لعجزه عن تدبير ما تحت يده والله تعالى هو الغني والولي والقادر على كل شيء، وإما لأنه لا يريد نفع من يكون تحت يده أو الإحساس اليه، وتكون الشفاعة وسيلة لترقيق قلبه وحتى على العدول عن نزعته الجائرة. والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده وأبرّ بهم من الوالدة بولدها..

وقد ردّ الله تعالى على الأمم السابقة الذين اتخذوا أنبياءهم شفعاء لهم عند الله، بأن هؤلاء الأنبياء والملائكة كلهم عباد الله لا يملكون لأنهم ضراً ولا نفعاً، ولا يستطيعون كشف الضرّ عنهم ولا تحويلاً. وان الملائكة والأنبياء عباد مكرمون، ولكنهم لا يشفعون عند الله لأحد إلا إذا أذن الله لهم بذلك. يقول الله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[1] ويقول: ﴿وكم من مَلَك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[2] ويقول: ﴿أم آتخذوا من دون الله شفعاء قل أوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون﴾[3].

---

(١) يونس ١٨
(٢) النجم ٢٦
(٣) الزمر ٤٣ - ٤٤.

ويجزم الله تعالى بأن العبادة له ينبغي ان تكون متلبسة بالحق بريئة من شوائب الزيغ والبهتان، سليمة من الشبه عارية من كل ما قد يسيء الى اشراقها وصفائها. لأن الدين لا يصح إلا أن يكون كذلك، وإلا انقلب الى أن يكون مظلّة فسيحة يستظل بها المتكسّبون والمتحايلون يقول الله تعالى: ﴿إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾[1].

وقد اوضح سخف المرتكز الذي تعتمد عليه العقيدة الوثنية وكذبها وتماديها في الباطل والضلال فقال: « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾[2].

ولئن كان الوثنيون العرب ومن لفّ لفهم ممن يعتقدون شبيه اعتقادهم في نظر القرآن الكريم كاذبين في ادعائهم ان اوثانهم تقرّبهم الى الله زلفى، فالاسلام إذن يقف من هذه الدعوى، دعوى شفاعة الاصنام وكل من كان في مثل منزلتها، موقف الرفض والانكار والتحريم.

## موقف الاسلام من الاستشفاع أصلاً:

بل إن بعض العلماء، هرباً من السقوط في مصائد الوثنية وأحابيل الشيطان، وتمسُّكاً بمبدأ الإخلاص لله تعالى، رفض مبدأ الاستشفاع بأيّة ذات مهما علا مقامها حتى ولو كان رسول الله ﷺ، وإن كانوا يسلمون بأنّه هو الشافع المشفع، وإنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وان الناس يستشفعون به يوم ذاك، وإن الله تعالى يأذن له بالشفاعة، فيخرج من النار كل من كان في قلبه مثقال ذرّة من النار.

---

(١) الزمر ٢ ـ ٣.

(٢) الزمر ٣

وقد ورد في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: « يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال » نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » وعن أبي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ ذكر عنده عمّه أبو طالب فقال: « لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه ».

ولا يكتفي هذا الحديث والذي سبقه بإثبات الشفاعة للرسول ﷺ لأهل الكبائر من أمته فحسب، بل يثبتها أيضاً منه لبعض الكافرين. فهو إذاً ﷺ شفيع الخلائق في اليوم المشهود. وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأوّلون والآخرون وهو قطعاً أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاهاً ومقاماً عند الله تعالى. ولئن كان الله تعالى قد قال في كتابه الكريم عن موسى عليه السلام « وكان عند الله وجيهاً » وأخبر عن عيسى عليه السلام بقوله: « وجيها في الدنيا والآخرة » فليس ينقص هذا من قدر الرسول من شيء..

ومع ذلك فإن منزلة الرسول ﷺ هذه لا تخوله اقتحام ما ليس له من المقامات ولا أن يقحمه غيره فيها؛ فلا يجوز ان يستشفع بذاته، كما أنه لا يجوز ان يستشفع بذات أحد سواه من الانبياء والرسل والملائكة..

بيد أن شفاعة الرسول ﷺ تتحقق وتكون مقبولة بدعائه. ومن دعا له الرسول فقد شفع له. ومن شفع له من هذا السبيل فقد توسل له الى الله بدعائه.

ولقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال: « اللهم، إنا كنا اذا أجدبنا توسلنا إليك بنبيّنا فتسقينا. وإنا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا » وقد فهم هؤلاء العلماء من قول عمر رضي الله عنه انه يريد ان يقول اللهم إنا كنا اذا أجدبنا توسلنا إليك بدعاء نبيّنا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبيّنا فاسقنا. وانه لو كان مفهوم دعاء عمر التوسل الى الله تعالى بذات الرسول لابدعائه لما عدل عن التوسل به الى التوسل بعمّه العباس، لأن التوسل به اولى من التوسل بعمه

العباس، وعدل عمر والصحابة إلى التوسل بالعباس بعد موت الرسول معناه أنه يتعذر التوسل بالرسول بعد موته.

وللمزيد من التوضيح يقولون: إن الإيمان بالله يقتضي توحيده والإخلاص له وقد أمر سبحانه وتعالى نبيّه بقوله: ﴿قل إني أمرت أن اعبد الله مخلصاً له الدين﴾[1] وقوله: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾[2] وقوله: ﴿وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدينا حنفاء﴾[3]. والذي يثبت الوسيط بين الله وبين خلقه يحكم على نفسه بالدخول في الشرك، لأن هذا عمل المشركين الذين كانوا يقولون عن اصنامهم وأوثانهم إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وإنها تقرّبهم الى الله، وأن استشفاعهم بتماثيلهم استشفاع بهم. بل قصدوا قبورهم وقالوا: من نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله، وصوّروا تماثيلهم فعبدوهم. وهذا بالذات هو الشرك بعينه الذي أنكره الله تعالى ايضاً على النصارى حيث يقول: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أُمِروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[4].

ولقد روى الأعمش وسفيان عن حبيب ابن ابي ثابت عن ابي البختري قال: سئل حذيفة عن قول الله عزّ وجل: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ هل عبدوهم؟ فقال لا. ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلّوه وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه» وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «ما هذا يا عدي؟! إطرح عنك هذا الوثن!!» وسمعته يقرأ في سورة براءة قوله تعالى: ﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾. ثم قال ﴿أمّا إنهم لم يكونوا يعبدونهم. ولكنّهم كانوا إذا أحلّوا لهم

---

(١) الزمر ١٣.

(٢) غافر ١٤.

(٣) البيّنة ٥.

(٤) التوبة ٣٢.

شيئاً استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه﴾ وقد نقل القرطبي في ذلك عن أهل المعاني قال: «جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء»[1].

ولقد أبطل الله تعالى هذه الشفاعة وذم المشركين لممارستهم لها ولسقوطهم بها في الكفر، فقال عن قوم نوح: ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾[2]. ولقد قال ابن عباس إن وداً وسواعاً ويغوث ونسراً هؤلاء قوم صالحون كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوّروا تماثيلهم فعبدوهم.

ومن أجل هذا المصير لعن رسول الله ﷺ من اتخذوا قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلون فيها. ونهى المؤمنين عن الصلاة الى القبور. وأرسل علي بن ابي طالب فامره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سوّاه ولا تمثالاً إلا طمسه ومحاه أو كسره. وعن ابي الهياج الأسدي قال لي علي ابن ابي طالب: «لأبعثنّك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألاّ تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته، وفي لفظ ولا صورة إلا طمستها» أخرجه مسلم[3].

ولقد روى ان معاذ بن جبل جاء مرّة الى رسول الله ﷺ فسجد له، فقال له ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟ فقال يا رسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم فقال ﷺ: «يا معاذ لا يصلح السجود إلا لله. ولو كنت آمراً أحداً ان يسجد لأحد لأمَرْتُ المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها»[4].

وكل هذه الاعمال هي من مظاهر الشرك بالله. وهي سبل الشيطان التي ينفذ

---

(١) القرطبي ٨/١٠٢.
(٢) نوح ٢٤.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٥١ - ١٥٢.
(٤) فقه السيرة الدكتور سعيد رمضان البوطي، ص ٣٥٥

منها الى قلوب الناس وقد قال عبد الله بن مسعود : « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » » .

وهكذا فإنا نخلص إلى التقرير بأن فريقاً كبيراً من العلماء لا يجوّز الاستشفاع بذات الرسول ﷺ ولا بذات سواه من الانبياء والصالحين ، وينكر ان يسأل العبد ربّه بمعظّم من المخلوقات أيّاً كان ، ولكنه يجيز التوسل الى الله وسؤاله بـالايمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم ، ويجيز التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل الثلاثة الذيـن آووا الى الغار ، فقد توسلوا باعمالهم الصالحة بعد أن حجزتهم الصخرة فيه ، الى الله ليجيب دعاءهم ويفرّج عنهم ويزيح الصخرة القائمة على فم المغار ، وقد كان . . .

وممن قال بهذا أبو حنيفه وأصحابه ، فقد قالوا لا يجوز السؤال بمخلوق . وقد نهوا عن ذلك . قال القدوري : المسألة بخلق الله لا تجوز لأنه لا حقّ للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً[1] .

ونقل ابن تيمية أن الصحابة كانوا يتوسلون بدعاء الرسول . وأن الفقهاء من أصحاب الشافعي واحمد وغيرهم ذكروا أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح . وقال بأن من نقل عن مالك بأنه جوّز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل عن امام من أئمة المسلمين غير مالك كالشافعي واحمد وغيرهما فقد كذب عليهم »[2] .

وابن تيمية يقف من هذه القضية وقفة جازمة . ولكنه مع ذلك يقرّ بأن هناك بعضاً من العلماء ، يقرّ التوسّل بالرسول ﷺ وإن كان ينقض أقوالهم بأدلة وبراهين كثيرة يسوقها[3] .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠٢/١ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢٥/١ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦٤/١ .

والواقع ان ثمة مجموعة من العلماء يذهبون الى القول بجواز الاستشفاع والتوسل بآثار النبي ﷺ فضلاً عن الاستشفاع والتوسل بذاته. وهم لا يفرّقون في ذلك بين ان يكون في حياته أو بعد وفاته ما لم يثبت ذلك أي معنى من معاني الشرك بالله. وحجتهم في ذلك حديث توسل الاعمى برسول الله ﷺ الذي جاءه يتوسل اليه ليردّ له الله بصره. وهو ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي عن عثمان بن حنيف، إن رجلاً أعمى جاء الى النبي ﷺ وهم جلوس معه فشكا اليه ذهاب بصره فأمره بالصبر فقال ليس لي قائد وقد شق على فقد بصري، فقال: «أئت الميضأة، فتوضأ ثم صلّ ركعتين ثم قل: «اللهم إني أتوجه اليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة، يا محمد إني توجهت بك الى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفّعه في» قال عثمان بن حنيف، فوالله ما تفرّق بنا المجلس حتى دخل علينا فكان بصيراً»[1].

ـــ إن هؤلاء العلماء يعتمدون هذا الحديث ويحتجون به. بينما يقول ابن تيمية فيه بأن لا حجة لهم فيه لأنه تصريح في أنه انما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته. وهو طلب من النبي الدعاء، فأمره النبي بأن يقول: «اللهم شفّعه في». ـــ

ويعتمد العلماء المثبتون على ما نقلوه عن البخاري فيما رواه عن أنس أن عمر بن الخطاب والصحابة كانوا إذا أقحطوا آستسقوا بالعباس بن عبد المطلب وهو ما سبق وادرجناه فيما تقدم، ويعقّب ابن حجر عليه فيقول: «ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوّة»[2] وقد ثبت تبرّك ابي أيوب الانصاري وزوجه بآثار أصابع الرسول ﷺ في قصعة الطعام بينما كان يردّ عليهما فضل طعامه. كما روى البخاري أن ام سلمه زوج النبي ﷺ كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبي في جلجل لها [ وهو ما يشبه القارورة ] فكان إذا أصاب أحداً من الصحابة عين أو أذى أرسل اليها إناءً فيه ماء فجعلت

---

(١) فتح الباري ٢/٣٩٨.

(٢) فتح الباري ٢/٣٩٨.

الشعرات في الماء ثم اخذوا الماء يشربونه توسلاً للاستشفاء وتبركاً . وكذلك ما رواه مسلم في كتاب الفضائل في باب طيب عرقه ﷺ أنه كان ﷺ يدخل بيت أم سُلَيم فينام على فراشها وليست هي في البيت . فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، ثم جاءت أم سليم وقد عرق النبي ﷺ واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدتها[1] وجعلت تنشف ذلك العرق ثم تعصره في قواريرها ، فأفاق النبي ﷺ فقال : « ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا . قال : « اصبت » .

ونقلوا أيضاً أن الصحابة توسلوا بشعراته ﷺ بعد وفاته ، وأنهم كانوا يتبركون فيها كما يتبركون بعرقه ووضوئه والقدح الذي كان يشرب فيه . وفي التبرك بالشيء طلب للخير بواسطته ووسيلته . والتوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو التماس الخير والبركة عن طريق التوسل بالشيء .

ومن العلماء الذين يذهبون الى هذا القول جمع من الفقهاء ورجال الحديث ، منهم الشوكاني وابن قدامة الحنبلي والصنعاني صاحب سبل السلام وابن حجر صاحب فتح الباري . إنهم يثبتون الاستشفاع والتوسل بأهل الصلاح والتقى والدين وبخاصة أهل بيت النبوة ، سواء في الاستسقاء او في سواه فضلاً عن التوسل والاستشفاع بذاته ﷺ وجاهه عند الله تعالى .

على أن هؤلاء وهم يثبتون ذلك يجزمون جزماً قاطعاً بأن التوسل والتبرك بالرسول ﷺ أو بآثاره أو بأهل الصلاح والتقوى ليس له من مفهوم إلا أن الرسول عليه السلام هو أفضل الخلق عند الله وأنه هو أقرب اليه . ويمكن من هذا الباب التوسل به كما يمكن التوسّل بمن دونه من الصالحين لما لهم من فضل . والصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يتوسلون بآثاره ﷺ وكانوا يحملون في قلوبهم هذا المعنى ، لم يجدوا من رسول الله أي انكار عليهم في ذلك .

---

(١) وهي شيء كالصندوق الصغير تجعل فيه المرأة ما يعز من متاعها .

أما ابن تيمية ومن سبقوه الى هذا الرأي أو أخذوا عنه يؤكدون انحراف هذا الرأي. وإنه لا يعتمد على حق، في الوقت الذي يقررون فيه أن أكثر أحاديث الفضائل ضعيفة وغير مقبولة، ولا يجوز الأخذ بها في العقائد وإن كان يمكن الاستفادة منها في فضائل الأعمال.

ولا ريب أن حجج الرافضين قوية جداً وبخاصة وأن الاسلام دين قد جاء ليمحو كل آثار الوثنية وكل لمحات الشرك وبوادر الضلال وكثير من الناس، وبخاصة عوامّهم لا يملكون القدرة على التمييز بين دقائق المعاني هذه فيقعون عن جهل وغفلة فيما هو شرك ووثنية وهم يريدون عبادة الله والتقرّب إليه بتبتّل واخلاص.

الإخلاص لله في العبادة واجب. والبراءة إليه من كل ما قد يوهم الشرك أمر مطلوب جزماً.. فالله هو الذي يجيب دعاء المحتاج، ويلبّي نداء المضطر، ويكشف السوء ويمنح الخير والبركات. يقول الله تعالى: ﴿أمّن يجيب المضطر اذا دعاه. ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكّرون﴾[1] ومواقف الرسول ﷺ من تصرفات بعض الصحابة التي تحمل بعض معاني الشرك بغير قصد يؤكد هذا المعنى ويلزم به.. فهو عندما سمع رجلاً يقول: «ما شاء الله وشئت» قال له «أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده». وكذلك كان موقفه من زيد بن حارثة عندما كان يطوف مع الرسول ومسح يده بإساف ونائله حيث نهاه وقال له لا تمسّه، ولما كرر قال له «الم تُنَهَ».

ولما شاء بعض أصحابه الثناء عليه وإطراءه قال لهم: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبد. فقولوا عبدالله ورسوله» ويضاف الى ما سبق دعاؤه «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد».

ولقد قال الاستاذ محمد فريد وجدي: «متى علم المسلم أن الشافع والمشفع هو

---

(١) النمل ٦٢.

الاستشفاع بربه. وناهيك بهذا بعداً عن الوثنية وقرباً من الديانة الالهية »[1].

وإن ما انجرف إليه بعض المتوسعين في فهم التوسل بالأولياء والصالحين وما يقومون به من أعمال للتقرّب إليهم والاستشفاع بهم عند الله، وهم ناس من الناس لا يعلم إلا الله ما هم عليه، لا يترك مجالاً للعذر لأنه قد وصل إلى حدّ غريب من الاسفاف والسخف، بل مظاهر الشرك التي تتنافى كلياً مع الإيمان الصحيح بالله والعبادة الخالصة له، فالطواف مثلاً لم يشرع في الإسلام إلا ليكون حول الكعبة. وكل طواف حوّل الى مكان آخر حرام. والتقبيل لجهاد على سبيل الاحترام والتقديس لم يسنّ في الإسلام إلا للحجر الأسود. بل حتى الحجر الأسود، قد قبله عمر رضي الله عنه وقال مخاطباً له معذراً نفسه من فعله هذا « والله لولا أني رأيت رسول الله يقبّلك ما فعلت » وكذلك إرسال الرسالات الى أضرحة الأئمة والأولياء وطلب الحاجات فيها منهم أو مباشرة وما شابه ذلك انحراف كلي عن صراط الله المستقيم، وسلوك في منعطف خطير ينتهي الى معاداة الله وموالاة الشيطان.

وإذا كان الرسول ﷺ وهو على قيد الحياة يقول: « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » وهو من هو في مقامه وعلمه ومنزلته عند الله. ثم هو يشدّد على أصحابه بأن يتوجهوا الى الله وحده بالسؤال، فكيف بنا في هذا العصر والعصور التي سبقته، نجيز لانفسنا ولابنائنا وإخواننا مثل هذه الأعمال والاقوال الخطيرة التي لا يؤمن فيها من مظاهر الشرك التي يجب أن يبرأ منها عمل كل مسلم وقوله؟ فالطواف في الاضرحة حرام أيّاً كان صاحبها، وتقبيل حواجزها من النحاس أو الحديد أو الخشب أو الذهب، والتمسح بها على سبيل التبرك حرام. والصلاة الى الضريح حرام. وسؤال من في الضريح حرام وكفر اذا اعتقد السائل

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين المجلس الخامس ص ٤٠٢.

انه يجيب، وانه يضر وينفع، والكتابة اليه بالرسائل وطرحها داخل القفص الذي يوجد فيه الضريح حرام، والتوسل به إلى الله تعالى حرام لأنه ليس في الضريح إلا بقايا الجثة الفانية، وكثيراً ما لا نملك ان نجزم فيما اذا كان في الضريح ذلك الذي تنسب اليه النبوة او الولاية أو الصلاح، بل ان قبور الانبياء ليست كلها مجزوماً بها اللهم إلا قبر النبي ﷺ وقبر ابراهيم عليه السلام في بعض الاخبار. بل حتى في الوقت الذي يكون فيه متحققاً من وجود العالم أو الصالح في قبره فإنه وهو في قبره ميت، ثم هو فانٍ على الاغلب وهو بموته انقلب اعجز من ان يستطيع الإجابة ونفع نفسه فضلاً عن ان ينفع غيره، فكيف وهو فانٍ ؟!!

# الفَصْل الخامِس

# موقف الإسْلام من العصبيّة والعنصريّة والتعامُل مع المشْركين

١ - الاسلام ليس دين عنصرية ولا عصبية

٢ - سبب تمييزه اتباعه على غيرهم

٣ - موقفه من التعامل مع المشركين والكافرين

٤ - جواز عقد الهدنة مع المشركين

٥ - جواز قبول هدية المشرك

٦ - الاستغفار لهم

٧ - موقف الاسلام من دخول المشرك المسجد

**الاسلام ليس دين عنصرية ولا عصبية:**

ليس الاسلام دين عنصرية. وهو لذلك لم ينشىء أتباعه يوماً على قاعدة الافتخار بعنصريتهم ودمائهم وعروقهم وألوانهم، بحيث يبنون علاقاتهم الاجتماعية في ضوء مفاهيمها. ولقد كان منهم الفارسي والرومي والحبشي والعربي، وكان منهم الأسود والأبيض والأصفر. والفقير والغني والضعيف والقوي، وقد وحّد بينهم الاسلام تحت مظلّة الاخاء والمساواة والعدالة. فقال الله تعالى لهم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ وقال ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» وكذلك بالنسبة الى صُهيب وبلال.

بيد أن الاسلام عندما آخى بين المسلمين وسوى بينهم شاء ألا يسقط في الظلم وألا يطفىء في الناس جذوة التنافس في العمل الصالح وفيما ينفعهم ويصلح معاشهم. ولذلك فقد ميّز بعضهم على بعض بنسبة ما يقدّمه لأمته ولمن حوله من خدمة تعود عليهم بالخير، وبما يجمع من خصال حسنة ونشاط محمود وعلاقة طيّبة مع الله ومع الناس. ولذلك فقد قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وليس الاسلام دين عصبية. ولذلك فإنه لم يفرض على أتباعه بل ولم يوجههم ليتناصروا في الحق والباطل لمجرّد انهم ملتقون في مجموعة عائلية أو حزب أو قبيلة أو أي كيان اجتماعي أو سياسي. بل كان دوماً ديناً متعالياً على هذا المفهوم وما شابهه مما يحمل الإنسان على التقوقع في حدود كحدود القبيلة أو الوطن أو اللون أو غير ذلك.

ولقد جاء الاسلام وشعار العرب في الجاهلية «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» منصوبٌ في كل قلب حتى كان قول شاعرهم.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فلم يلبث حتى عدّل معنى هذا الشعار بما يخرجه عن مدلوله التعصبي ويجعله في مدلوله الرحب القيّم السامي الذي يتسع لكل صلاح ولكل بر. فقال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. ولما سأله أحد الصحابة قائلاً: فهمنا كيف ننصره مظلوماً ولكن كيف ننصره ظالماً؟ فقال: «بأن تردعه عن ظلمه».

وقد أقر الاسلام الرابطة العائلية. ووضع لها من الأنظمة ما شدّ وثاقها وأحكم رباطها وأكرم الولاء لها، وجعلها بحيث تؤتي ثمارها الاجتماعية الصالحة. ولكنه مع ذلك جعل الولاء لها مستمداً من الولاء لله. بل إنه شجب العصبية عندما تكون موجهة لها أو للقبيلة في غير الحدود التي أمر الله بالالتزام بها. ولقد وصى الله تعالى الإنسان بوالديه إحساناً وبأمه بالذات وجعل أهم الواجبات بعد توحيد الله وعبادته اكرام الوالدين والقيام بحقوقهما والتوجه اليهما بمنتهى التواضع والتذلل وحسن الأدب والرحمة والعطف، وبالدعاء لهما بين يدي الله لمزيد من الاكرام وضمان الرحمة لهما. يقول الله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربّياني صغيرا﴾[1] ولما سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ عمن هو أجدر بحسن صحابته قال ﷺ: «أمّك أمّك أمّك ثم أباك».

ولكن الاسلام لم يشأ أن يكون هذا الولاء مرهوناً لأي معنى من معاني السوء والأذى الاجتماعي، فأبى له أن يتطور ليصبح تعصباً وانشداداً إليهما بالحق وبالباطل، في ما أمر به الله وأوصى به وفيما نهى عنه وكرهه. ولذلك قال ﷺ:

---

(١) الإسراء ٢٣ - ٢٤.

ليس منا من دعا الى عصبية » وكأنه يأبى أي عصبية تكون لغير الله وكلماته وهداه، حتى ولو كانت للعائلة أو للقبيلة اللهم إلا إذا كانت في إطار العدل والحق وفي حدود ما أمر به الله تعالى.

بل إننا لنرى الإسلام يجعل الولاء للدين فوق الولاء للعائلة ولأية جهة أخرى ومعنى آخر. كما يجعل أخوة الدين مقدّمة على أخوة النسب في بعض الأحيان ولذلك منع التوارث بين الأخوين من النسب إذا اختلف دينهما. وألزم مناصرة الأخ المسلم بالحق وجعلها مقدّمة على مناصرة الأخ من النسب إذا كان غير مسلم. ولكنه مع ذلك جعلها تناصراً دائراً في حدود دستور الإسلام القائل: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ».

واحتقر الاسلام العصبيات على اختلافها لأنها متفرعة عن الهوى ومنبثقة من الأنانية وحب الذات. وقد روى أن شاس بن قيس اليهودي، مرّ بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فغاظه ما رأى من الفتهم وصلاح ذات بينهم في ظل الاسلام، فقال: « آجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد!! والله ما لنا معهم اذا اجتمعوا من قرار!! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له، اعمد إليهم وآجلس معهم ثم ذكّرهم يوم « بعاث » وما كان قبله. وانشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار. ففعل وتنازع القوم وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّيْن على الركب، وقال أحدهما: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة!! وغضب الفريقان جميعاً وقالا: قد فعلنا: السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة يعنون حرّة المدينة.

فخرجوا، وانضمت الأوس والخزرج بعضهم الى بعض على دعواهم في الجاهلية، فبلغ رسول الله ﷺ ما حدث فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم وقال: « يا معشر المسلمين: أبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد إذْ أكرمكم الله بالاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفاراً؟! » ولما عرف القوم انها ثمرة كيد من العدو ونزوع شيطاني، ألقوا السلاح، واعتنق بعضهم بعضاً ونزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذي آمنوا إن

تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله. ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم﴾[1].

لقد أحتقر الاسلام العصبية العنصرية والعصبية الجنسية والعصبية العائلية التي هزّت في الماضي كيان الانسان الاجتماعي وخرّبته، ثم عادت تذرّ قرنها وتنتشر بحمق وجنون في هذا العصر الحديث رغم ما انتهى إليه انسانه من تقدم علمي وحضاري.

ولقد اشتدت حملة الرسول ﷺ على النزعات الجاهلية التي منها التعصب للاباء والافتخار بهم، ورد الاجر والفضل كله الى الأعمال لا الى الأنساب. وفي المعنى الأول يقول: «لينتهينَّ أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا. إنما هم حطب جهنم أو ليكونَنَّ أهون على الله من الجُعَل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء». ويقول في المعنى الثاني: «من بَطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» ويقول: «يا فاطمة بنت محمد اعملي لا أغنى عنك من الله شيئاً» ويقول لأهله: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بإنسابكم!!».

ومن أجل هذا كان من منهج الدعوة الإسلامية مخاطبة كل الناس على اختلاف طبقاتهم وإمكاناتهم، وعلى قدر عقولهم ومفاهيمهم. وكان خطابه لهم جميعاً على مستوى واحد من المحبة والحرص على الخير وبلطف كامل وبالحكمة والموعظة الحسنة. وإذا جادلهم جادلهم بالتي هي أحسن، ولم يأخذ بالاعتبار أصل من يجادله أو عرقه أو لونه أو مكانته الاجتماعية. فإذا دخل الواحد حظيرة الإيمان وحسن عمله امتاز على سواه بفضل ما يقدّم من سعي حميد وعمل صالح. وفي مثل هذه يقول الله تعالى: ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك

---

(١) راجع هذه القصة في كتب التفسير وبخاصة في القرطبي ١٥٥/٤ والآيات من آل عمران ١٠٠-١٠١

أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾[1]. ويقول بالتفريق بين المؤمن والكافر ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[2].

ومع ذلك فإن الله تعالى لم يحرم الكافر من الاستماع الى الحق والاستمتاع به، فوجه خطاب اليه كما وجهه الى المؤمن. ولقد قال بعض العلماء: أن ما ورد في الكتاب الكريم من الخطاب مبدوءاً بـ ﴿يا أيها الناس﴾ هو موجّه الى المشركين والكفار مع المؤمنين، فيسّر الله تعالى بذلك للمشرك سماع الحق ومشارفة النور كما يسرّه للمؤمن. بل ان القرآن الكريم ليبرز هذا المعنى كل البروز حين يقول: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[3].

ولا عجب في هذا وقد ارتضى الله تعالى الاسلام ليكون ديناً للعالمين، وليس لطبقة ولا لشعب ولا لقبيلة أو أسرة بالذات. بل جعل من حق كل إنسان مهما كان جنسه أو لونه أو لغته أو طبقته أن يتعرف الى ما جاء به عن طريق قراءة كتابه أو أحاديث رسوله أو سماعها... ومن حقه أن يؤمن به ويلتزم بشريعته وآدابه، ولذلك فإن من حق المشرك والملحد والكافر ومن لا عقيدة له الاطلاع على هذا الدين والإلمام بما فيه، ومدارسته ومناقشته والاستفادة منه، والانضمام إلى المجموعة التي انضوت تحت لوائه وآمنت به...

---

(١) الحديد ١٠

(٢) ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٣) التوبة ٦

— سبب تمييزه أتباعه على غيرهم:

بيد أن هذا المنهج الرحب الذي يرفض العصبية والعنصرية والذي يمتاز به الاسلام، لا يمنع ان تكون له شرائعه التي تحمي هيكليّته وتصون كيانه وتحفظ أتباعه وحقوقهم من عبث العابثين والمفسدين وذوي الاهواء والأغراض؛ فإذا ميّز أتباعه ومناصريه على أعدائه بالمعاملة أو بالحكم والنظر، فليس من المنطلق العنصري أو التعصّبي الأعشى، بل منطلق الحق وتعزيزه من أذى المعارضين والمخالفين. وإلا لم يعد للحق مناصر ولا مؤيد، وآستوى بعد ذلك الخير والشر، والحق والباطل، والاصلاح والفساد!!. وهيهات هيهات أن يقوم للعدالة صرح أو ينتصب للخير كيان..

ولو كان منطلق التمييز هذا الذي أجاز لنفسه الاسلام منحه لأتباعه على أعدائه قائماً على أسس العنصرية أو العصبية بالذات كما نرى عند اليهود مثلاً، لرفض الاسلام أساس التوراة والانجيل وأعلن حربه عليها دونما هوادة، ولما قبل الرسول ﷺ أن يكون آتجاهه في صلاته، في مطلع الدعوة، إلى بيت المقدس، ولا أن يصوم عاشوراء ويقول لأصحابه مبرراً ذلك عندما رأى اليهود يصومونه «نحن أولى بموسى منهم» ولا أن يقبل بأن ينتصر بعض أتباعه للروم على الفرس يوم غلبهم هؤلاء، ولا أن يكرر الثناء العطر على أنبياء بني إسرائيل فرداً فرداً، وغير ذلك كثير مما يؤكد نزعة الإسلام العامة ومنطلقه الإنساني الشامل المرتكز على الحق والحق وحده.

## موقفه من التعامل مع المشركين والكافرين:

ولقد اضطرت ظروف الدعوة نفسها الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، إلى التجمع والتكتل بعد أن تصدى لهم المشركون في قريش وحملوا عليهم حملة شديدة فيها كل التضييق والرفض في أن يبقوا فيهم ويظلوا يعيشون معهم، ومن ثَمّ الخضوع إلى رغبة القرشيين بالابتعاد عنهم والبحث عن بلد يلجأون إليه فراراً بدينهم منهم، حتى يسّر

لله هم الهجرة الى المدينة حيث أقاموا مجتمعهم الإسلامي الخاص ثم دولتهم المواجهة لقريش وللعرب المشركين كافة.

وفي مجتمعهم الجديد وفي ظل دولتهم الحديثة الناشئة ظهرت تشريعات جديدة تناولت علاقة المؤمن بأخيه المؤمن والمؤمن بالمشرك والكافر وحددتها، بالاضافة الى تشريعات أخرى ظهرت نظمت علاقة المؤمن بربّه وبرسوله وشملت حياته الدنيا وأقامتها على أسس سليمة تضمن له سعادته فيها ومن ثم سعادته في الآخرة.

وقد يتوهم البعض بأن الاسلام ما كان يجيز للمسلم بأن يتعامل مع المشركين ومواصلتهم، كما يتوهم بأنه بالمقابل قد شحن نفسه بكل مشاعر الكره والحقد والمقت له، وفي هذا ما فيه من الخطأ الكبير، والانحراف الواضح عن جادة الصواب. إذْ لو كان الأمر كذلك، لتعذّر إيصال أيّة فكرة عن الدعوة الجديدة الى أي مشرك أو كافر. وهو ما لم يكن. لأن الدعاة المسلمين، وفي مقدّمتهم صاحب الدعوة الأول محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كانوا ينقلون الى أولئك المشركين والكافرين الصورة الواضحة عن الاسلام، ويدعونهم لاعتناقه والانضمام الى جماعتهم.. وذلك عن طريق اللقاء معهم والاختلاط بهم.

على أن الاسلام في مطلع الدعوة وقبل الهجرة كان يسمح بالاختلاط الكلي بالمشركين وبالزواج من نسائهم وبتزويجهم نساء المؤمنين. وقد زوج الرسول ﷺ ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس. وقد ثبت انها رضي الله عنها قد فدته من الأسر يوم بدر، ثم هاجرت الى المدينة بعد ذلك وظلت فيها وزوجها بعيد عنها في مكة كافر وهي على عصمته مدة ست سنوات حتى نزلت آية الممتحنة سنة ثمانٍ للهجرة وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ، الله أعلم بايمانهنّ، فإن علمتموهُنّ مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفّار لا هُنَّ حِلّ لهم ولا هم يحِلّون لهن. وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهُنَّ أجورهن ولا تمسكوا بِعِصَمِ الكوافر وسئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم

حكيم﴾[١] وحينئذ جاء أبو العاص مسلماً وردّ عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب[٢].

ومنذ هذا النهي أمسك المسلمون عن الزواج بنساء المشركين. وقد ورد عن الزهري لما نزلت هذه الآية، طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة: ابنة أبي أمية، وابنة جرول وكذلك طلحة بن عبيد الله طلق بنت ربيعة. وكان ممن فرّ الى رسول الله من نساء الكفار ممن لم يكن بينه وبين رسول الله عهد فحبسها وزوجها رجلاً من المسلمين، أميمة بنت بشر الأنصارية، كانت عند ثابت بن الدحداحة، ففرّت منه، وهو يومئذ كافر، الى رسول الله فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف أحد بني عمرو بن عوف فولدت له عبد الله[٣].

ولقد ظل تعامل المسلمين مع المشركين قائماً حتى كانت حركة المشركين الانتقامية منهم، وكانت الهجرة الى المدينة. وقام الحذر والاحتراس بل وحالة الحرب بينهما.. بيد انه مع ذلك فقد سمح الاسلام للمسلم بأن يتعامل مع قريبه المشرك المواصل له وكذلك مع الجار المحاسن ومن هو في حكم ذلك مع الحذر واليقظة المطلوبة دوماً. ولقد ورد انه ﷺ سمح لأسماء بنت أبي بكر بقبول هدية والدتها المشركة عندما قدمت المدينة في الفترة التي كانت فيها الهدنة قائمة بين رسول الله ﷺ وكفّار قريش كما في البخاري ومسلم، وكما فهم ذلك أكثر أهل التأويل لدى دراسة آية الممتحنة وهي قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[١] فقالوا إنها محكمة ولا يزال العمل بها سارياً»[٢].

بيد أننا قد نبّهنا سابقاً الى أن السماح بمعاملة المشركين مشروط بأن يكون في

---

(١) الممتحنة ١٠.

(٢) راجع القاسمي ١٦/١٣١ وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٤١.

(٣) راجع القاسمي ١٦/١٣٣.

(١) الممتحنة ٨.

(٢) القرطبي ١٨ ص ٥٩.

حدود الحذر واليقظة. وذلك لأن المشركين مع شركهم منافقون في خصالهم وأخلاقهم، تتلاعب بهم الأهواء والمصالح. ولا يشدّهم مبدأ ولا تضبطهم شريعة ولذلك فإن الإسلام ينصح أتباعه بعدم الركون الى عهودهم ومواثيقهم وأيمانهم. يقول الله تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام...﴾ الى أن يقول: ﴿كيف وإنْ يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾(١). ويقول: ﴿وإن نكثوا أيْمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلّهم ينتهون﴾(٢).

وهو على كل حال سمح بالمعاملة في الحدود المذكورة آنفاً، ولكنه ظل يشتد مع البعض منهم ويقسو في معاملتهم ويضغط على المؤمنين لمجافاتهم وقطع موالاتهم أو موادتهم حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. وذلك من مبدأ الحرص على الجماعة الاسلامية والبحث عن أسباب الأمان لها وتخفيف المتاعب والمشاكل عنها. يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان. ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾(٣) ويقول: ﴿لا تَجِدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾(٤).

وقد فرّق العلماء في الحكم بين المسلم الذي يعايش المشركين ويفرض عليه ظرفه البقاء فيهم والاستمرار في التعامل معهم، وهو ضعيف لا يطيق إظهار دينه ولا يتمكن من الاستعلان في إقامة شعائره المفروضة عليه في الوقت الذي هو قادر على الخروج من بينهم الى منطقة إسلامية أو بلد إسلامي، وبين حكم المسلم العاجز الذي لا يملك القدرة على الخروج من بينهم الى بلد إسلامي أو مجموعة إسلامية

---

(١) التوبة ٦ ـ ٧.

(٢) التوبة ١٢.

(٣) التوبة ٢٣.

(٤) المجادلة ٢١

وهو في الوقت نفسه ضعيف فاقد لإمكانية اقامة شعائره وابراز معالم عقيدته. وذلك لمرضه أو خوره أو ضعف من النساء والولدان، وبين حكم المسلم القوي القادر على كل ذلك فقالوا في حكم الأول:

إنه يجب عليه الخروج من حظيرة أولئك المشركين والهجرة الى بلد إسلامي يستطيع فيه أن يعلن عقيدته ويقيم شعائره الدينية المفروضة عليه دونما حسيب أو رقيب وذلك لقوله تعالى: ﴿إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفُسِهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنّا مستضعفين في الأرض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً﴾(١).

وقالوا في الثاني: إنه يجب عليه الهجرة ولكن عليه الصبر وارتقاب الفرص حتى يأتيه الوقت المناسب أو الظرف المؤاتي الذي يمكنه فيه الخروج وذلك لقوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً﴾(٢).

وقالوا في الثالث: إنه يستحب له البقاء حيث هو بين المشركين وذلك ليتمكن من إظهار معالم دينه لأعدائه علّه يؤثر فيهم ويستميلهم إليه ويرغّبهم فيه ويشجعهم على اعتناقه. وذلك لأن العباس عم النبي ﷺ كان مقيماً في مكة مع إسلامه. وروى أن نعيم النّحام حين أراد أن يهاجر من بين قومه المشركين جاؤوه فقالوا له أقم عندنا وأنت على دينك ونحن نمنعك ممن يريد أذاك. واكفنا ما كنت تكفينا. وكان يقوم بيتامى بني عدي وأراملهم، فاستجاب لهم وأقام فيهم وتخلّف عن الهجرة مدة، ثم هاجر بعدها فقال له النبي ﷺ: «قومك كانوا خيراً لك من قومي لي؛ قومي أخرجوني وأرادوا قتلي، وقومك حفظوك ومنعوك» فقال يا رسول الله: «بل قومك أخرجوك الى طاعة الله وجهاد عدوّه وقومي ثبّطوني عن الهجرة وعن طاعة الله»(٣).

---

(١) النساء ٩٧.

(٢) النساء ٩٨ - ٩٩.

(٣) المغني لابن قدامه ١٠/٥١٤ - ٥١٥.

ويدلف بنا هذا الحديث للتساؤل فيما اذا كان يمكن أن يعقد المسلمون الهدنة مع المشركين. ونجيب بأنه ﷺ عقد معهم الهدنة. فترك قتالهم ووادعهم وسالمهم. وإن كان هذا كما نصّ عليه العلماء لا يتم إلا بموجب شروط ينبغي مراعاتها. قال ابن كثير: « فامّا إن كان العدو كثيفاً، فإنه لا يجوز مهادنتهم كما دلت عليه الآية من سورة الأنفال. يقول الله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسَّلم فآجنح لها وتوكّلْ على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حَسْبك الله هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين﴾[1] وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية »[2]. « ولقد كان من أثر هذه الهدنة والموادعة تخالط المسلمين والمشركين ودخول بعضهم الى ديار بعض وتبادل المنافع من التجارة والزيارة وسواهما »[3].

وقد ذهب العلماء الى القول بأن من أمّن من المسلمين مشركاً بقوله قف أو لا تخف، فقد وجب على المسلمين تأمينه. ولقد روى: « أن عمر بن الخطاب قال للهرمزان بعد أن أتى به، وكان فزعاً: تكلّم ولابأس عليك. فلما تكلّم أمر عمر بقتله. فقال له أنس بن مالك: ليس لك الى ذلك سبيل لأنّك قد أمّنته. قال عمر كلاّ. قال الزبير إنك قد قلت له تكلم ولابأس عليك!! فدرأ عنه عمر القتل »[4].

## جواز قبول هدية المشرك:

بل ولقد ذهب الإسلام الى أبعد من هذا، فأجاز قبول هدية الكفار والمشركين كما سبق ذكره، وفيه ما فيه من جواز تبادل الصِلات وإقامة العلاقات والتعامل التي لا تضر بالعقيدة ولا بالدين. وقد قبل الرسول ﷺ هدية المقوقس كما أجاز لأسماء قبول هدية والدتها المشركة.

---

(١) الأنفال ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٢٣.

(٣) المغني لابن قدامه ١٠/٦٠٥ ـ ٦١٥.

(٤) ابن قدامه ١٠/٥٥٨

**الاستغفار لهم:**

ولئن كان الاسلام قد نهى أنصاره المؤمنين من موالاة ومناصرة المشركين والكافرين في الحياة وبعد المات، بمعنى التأييد والتعزيز. والتقوية على حساب الاسلام وضد مصالحه وتعاليمه، فقد اختلف عن ذلك موقفه منهم بالنسبة لجواز الاستغفار أو الدعاء لهم. وذلك لأن العلماء قد فرّقوا بين الاستغفار لأحيائهم والدعاء لهم، وبين الاستغفار والدعاء لهم بعد الموت.

وقد روى عن النبي ﷺ انه قال يوم أحد حين كسر المشركون له رباعيته وشجوا وجهه: « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » وفي هذا الدعاء كان ﷺ يرجو إيمان قومه المشركين ويأمل انعطافهم نحو الاسلام والحق. ولذلك كان منه هذا الدعاء. وقد قال كثير من العلماء بأنه لابأس بأن يدعو المسلم لأبويه الكافرين وغيرهما ما داما على قيد الحياة...

وليس هذا بغريب عن منهج الاسلام الذي يحمل للناس كل معاني الخير ويضمر لهم كل حب ويتطلع اليهم بكل ود ورحمة. بل الغريب استنكار الدعاء لأحياء الكافرين أو المشركين أو الاستغفار لهم. لما في استنكاره من تعطيل لمهمة الاسلام وتفريغ له من قصده وهدفه الذي هو الدعوة إلى الحق والتشجيع لتقبل الخير وايصال الناس الى صلاحهم الدنيوي والأخروي.

نعم إذا كانوا أمواتاً، فإن الموقف يتغير وكذلك الحكم. وذلك لأنهم ماتوا وهم مصرّون على الكفر وعلى معاداة الله ومحادّته، وانقطع كل أمل بتحويلهم وتبدّلهم من الكفر الى الايمان. وقد حرّم الله تعالى الاستغفار لهم وكذلك الدعاء والترحم عليهم. وفي هذا يقول القرطبي: « قال القاضي أبو بكر بن العربي تعلّق النبي ﷺ في الاستغفار لأبي طالب بقول ابراهيم عليه السلام: « ساستغفر لك ربي »[1] فأخبره الله تعالى ان استغفار ابراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبيّن الكفر

---

(١) مريم ٤٧

منه فلما تبين له كفره تبرأ منه فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا »[1]

ويتضح من هذا الكلام ان الاستغفار للكافر وللمشرك جائز اذا كان على قيد الحياة وكذلك الدعاء. ولكنه يصبح محرّماً بعد التأكد من موته مُصِراً على الكفر. ويتأكد قطعاً أن الاستغفار والدعاء الممنوعين هما بعد موت الكافر أو المشرك وانقطاع أمله في الحياة بقول الله تعالى لنوح، وقد ناداه قائلاً: ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[2] ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك ان تكون من الجاهلين﴾[3].

وقد ثبت بأن الله تعالى قد أذن لرسوله الكريم بأن يزور قبر أمه. ولكنه لم يأذن له بالاستغفار لها. فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته بأن أزورها فأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكر الموت ».

## موقف الاسلام من دخول المشرك المسجد:

ولقد كان المشركون في أول العهد بالاسلام يترددون على المسجد الحرام كما يترددون على مسجد النبي ﷺ. حتى كان العام التاسع من الهجرة حيث نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[4] وقد ورد ان النبي ﷺ اتبع أبا بكر بعلي رضي الله عنهما لينادى في المشركين: « ألاّ يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ».

---

(١) القرطبي ٨ ٢٧٤ ـ ٢٧٥

(٢) (٣) هود ٤٥ ـ ٤٦.

(٤) التوبة ٢٨

ولقد ذهب الأحناف والشافعية وزيد والمؤيد بالله الى إن نجاسة المشرك المنصوص عليها في الآية هنا ليست نجاسة ذاته، وذلك لأنه ﷺ توضأ من مزادة مشرك واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبي ﷺ الى الأسارى ولا تغسل. وكان أصحاب النبي ﷺ يطبخون في أواني المشركين ولا تغسل.

بيد أن أجلة العلماء ذهبوا الى تحريم دخول المشرك أو الكافر الى المسجد الحرام، وقاسوا على تحريم دخول المشرك أو الكافر المسجد الحرام تحريمهم دخوله المساجد عامة. وبذلك كتب عمر بن عبدالعزيز الى عماله كما في صحيح مسلم: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر» والمشرك والكافر لا يخلو أحدهما عن ذلك لأنه لا يتطهر لا من بول ولا من غائط قال رسول الله ﷺ: «لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب» والمشرك وقد وصفه الله تعالى بأنه نجس لا يخلو من أن يكون نجس العين أو مبعداً من طريق الحكم. «وأي ذلك كان فمنعه من دخول المسجد واجب لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيه والحرمة موجودة في المسجد». أما الشافعي وقد خالف هذا الرأي فقد رأى أن الآية عامة في سائر المشركين، ولكنها خاصة في المسجد الحرام. فإن جاز الذهاب الى منعهم من دخوله، فلا يجوز منعهم من دخول غيره. وبذلك أباح دخول اليهودي والنصراني الى المساجد كلها ما عدا المسجد الحرام[1].

---

(١) القرطبي الجزء الثامن ص ١٠٤ ـ ١٠٥

## الفصل السادس

# صور عن مناسك المشركين وحياتهم وموقف الإسلام منها

١ ـ عقيدتهم في الموت وما بعده
٢ ـ وسائل تقرّبهم إلى آلهتهم
٣ ـ دور النذور
٤ ـ البحيرة والسائبة والوصيلة والحام
٥ ـ سدانة الصنم
٦ ـ النَسأة
٧ ـ اعراف وعادات أخرى
٨ ـ شعائرهم الدينية
٩ ـ الحلال والحرام عندهم
١٠ ـ اعظم مواسمهم
١١ ـ عكاظ ومجنّة
١٢ ـ الطواف
١٣ ـ الحُمس والحلة
١٤ ـ السقاية
١٥ ـ المذابح والنصب

١٦ - المزارات
١٧ - الارواح والقوى الخفية وأثرها في حياة الجاهليين
١٨ - الهاتف والرئي
١٩ - الكهانة
٢٠ - العرّاف
٢١ - الاستقسام بالأزلام
٢٢ - من عاداتهم وأوهامهم

## عقيدتهم في الموت وما بعده:

والمشركون الوثنيون من أبناء الجزيرة العربية كانت لهم الى جانب عبادتهم الأصنام عقائد وعادات وأعراف يحسن أن نتطرق إليها ببعض الحديث لنيسّر الكلام في شرح موقف الاسلام منها. فهم مثلاً يفهمون الموت على أنه سكون الجسد بعد مفارقة الروح له. كما يرون أساساً أن الانسان مركب من روح وجسد، فهم يعتقدن إذن بالثنائية في حياة الإنسان ووجوده.

غير أن أكثر الجاهليين العرب ما كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت. بل يعتقدون بأن الموت نهاية الإنسان، وأنه لا بعث بعده ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ولا ثواب.

ويثبت هذا أنه لما جاءهم الرسول ﷺ يحدثهم عن البعث وعن الحشر والجنة والنار والحساب والعقاب، عجبوا كل العجب. وقد قال الله تعالى معبراً عن ذلك ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾[1] وقال: ﴿وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[2] وقال: ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون، قالوا اءذا متنا وكنا تراباً

---

(١) ق ٢ ـ ٣

(٢) النمل ٦٧ ـ ٦٨

وعظاماً أءنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[1].

**وسائل تقرّبهم الى آلهتهم:**

ولقد كانوا وهم يعتقدون بآلهة متعددة ويعظمون الاصنام والأوثان، يتقرّبون إليها بوسائل مختلفة يعبرون بها عن مشاعر التقديس ورغبات الحرص على مباركتها.

ومن وسائل توددهم إليها والتقرب الى رضاها، تنفيذ أوامر كهّانها وسدنتها، وزيارة معابدها وتقديم النذور إليها، وإيقاف الحبوس عليها، والحج إليها في أوقات مخصوصة مع تقديم القرابين إليها.

**دور النذور:**

ولقد كانت النذور شائعة في المجتمع الجاهلي، يلجأ العربي الى اطلاقها واستخدامها كلما حزبه أمر أو نزلت به حادثة تقتضيه الاستعانة بالقوى الخفية القاهرة. ولقد لعبت النذور دوراً كبيراً في حياة المشركين الدينية حتى كادت تكون المظهر الأول للتديّن عندهم.

والنذر قد يكون ذبيحة أو أكثر من ذبيحة. وقد يكو نقوداً، أو محاصيل زراعية أو فاكهة، كما قد يكون أرضاً، أو حبساً من إنسان لنفسه أو لآبنه أو مملوكه ليكون في خدمة الآلهة وبيوتها. ولقد كان من هذا القبيل «الربيط». وهو أنهم كانوا ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت أو لبيت الصنم. ويروى هنا أن أم «الغوث بن عامر» لما ربطته عند البيت أصابه الحر، فمرّت به وقد سقط وذوى وآسترخى[2]. ويفهم من هذه الحادثة أنهم كانوا يربطون المنذور

---

(١) المؤمنون.

(٢) الروض الآنف ٨٥/١.

خدمة البيت بالموضع المقدس ليكون على اتصال تام به.

ولعل من هذا القبيل ما يفعله بعض الجهلة والبسطاء من عوام هذا العصر إذ يربطون مرضاهم ومن يظنون أنه لا يعيش طويلاً من أولادهم وأحبابهم بقبور الأولياء بخيط أو حبل رجاء الشفاء لهم أو طول العمر.

وروت كتب السير أن عبد المطلب جد النبي ﷺ، قد نذر إن توافى له عشرة أولاد أن ينحر أحدهم. فلما اكتمل العدد عشرة قرّر الوفاء. ولما لم يكن قد حدد الولد الذي عليه أن يذبحه، ذهب كعادة أهل مكة الى هبل يستقسم عنده. فلما أصاب النصيب عبد الله والد النبي ذهب الى «إساف» و«نائلة» ليذبحه عندهما. فقامت قريش عليه وصرفته بالقوة والمنطق عن ذلك وأخذوه الى عرّافة كانت في المدينة يأتيها تابعها «أي جنّيها» فأشارت عليه بأن يضرب بالقداح على ابنه وعلى عشر من الإبل، وهو مقدار الديّة عندهم، فإن خرجت القداح على عبد الله ضربوا القداح مرة أخرى بعد أن يزيدوا الإبل عشرا وهكذا حتى تقع على الإبل حيث يكون الربّ قد رضي تمام الرضى كما يزعمون. وحينذاك تنحر الإبل. وفعلوا وارتفع عدد الإبل الى المئة. وحينئذ وقعت القداح على عبد الله فذبحوا الإبل ونجا عبد الله من الذبح.

وقد روى أهل التفسير والمحدثون والرواة أن من هذه النذور ما يقع فيه الاحتيال ويتصف بالتلاعب والمخادعة. وذلك كالذي ذكره القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[1] فكانوا يقسمون الغنم فيجعلون بعضه لله وبعضه للاصنام، فما كان لله أطعموه الضيفان وما كان للصنم أنفقوه على الصنم.

وكانوا إذ آختلط ما جعلوه للصنم بما جعلوه لله ردّوه، واذا آختلط ما جعلوه

---

(١) الأنعام ١٣٦

لله بما جعلوه للصنم تركوه. وقالوا الله أغنى. وإذا هلك ما جعلوه للأصنام بدّلوه بما جعلوه لله، وإذا كان العكس لم يبدلوه بما جعل للأصنام[1]

وعلى العموم فقد كانوا يتصرفون بما خصّصوه لله من نصيب بينما يحافظون على ما خصّصوه للأصنام.

واشتهر من أعرافهم كثرة النحر في شهر رجب. وهو من الأشهر الأربعة التي كان لها حرمة عندهم ويسمّون الذبح في هذا الشهر «الترجيب» كما يسمّون الذبائح التي تقدم فيه «العتائر» وهي جمع عتيرة.

**البحيرة والسائبة والوصيلة والحام:**

ولقد كان من عاداتهم الجاهلية أن الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك على خلاف في الرؤية، نظروا في البطن الأخير فإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه. وإن كان أنثى شقوا أذنها ومنعوا جزّ وبرها والحمل عليها. وحرّموا على النساء ذوق لبنها أو الانتفاع بها. وحصروا منافعها بالرجال فقط. وهي التي كانوا يسمّونها البحيرة. وقد قيل في سبب هذه التسمية أقوال غير هذه.

وكانوا إذا قدم الرجل من سفر بعيد، أو برىء من علّة، أو نجّته دابّته من مشقة أو حرب قال: ناقتي سائبة، فَتُسَيَّب ولا ينتفع بظهرها ولا تمنع من ماء ولا من كلأ. وقيل غير هذا.

كما كانوا إذا ولدت الواحدة من الغنم أنثى بعد أنثى، سيّبوها ويقولون إنها وصلت أخاها؛ فلا تذبح وكان لحمها حراماً على النساء. وإذا نتج من صلب الفحل من الإبل عشرة أبطن قالوا فيه لقد حمى ظهره. فيتركونه ولا يركبون ظهره ولا يمنع من كلأ ولا من ماء.

---

(١) الطبري ٣٠/٨

## سدانة الصنم:

وكان من أبرز خصال الجاهليين سدانة بيت الصنم. وهي مهمة خاصة تسند الى من يطلب إليه القيام بخدمة الصنم والمكان القائم فيه. وهو بيت العبادة. ويقال للسدانة الحجابة. ويعرف السادن بأنه الحاجب. وقد كان لهذه المهمة شأن عند العرب، لأنها كانت من درجات الشرف والجاه. وتضفي على القائمين بها حرمة ومكانة رفيعة في النفوس.

ولقد كان أمر فتح البيت وغلقه وسدانته موكولاً في الجاهلية الى بني عبد الدار. ولما فتح الله مكة على رسوله الكريم أقرّها فيهم. فكانت السدانة تنتقل إرثاً من الآباء إلى أكابر الأبناء، وتنحصر في الأسرة فلا يمكن انتزاعها منها إلا بالقوة. ومن واجب العشيرة كلها التي تنتمي إليها الأسرة السادنة أن تهب للدفاع عنها في مثل هذه الحال. وكانت الأسرة السادنة تستفيد من النذور والقرابين التي تقدم الى بيوت الأصنام لأنها من حقها وحدها ونصيبها.

## النَّسأة:

ولقد كان في العرب الجاهليين متخصصون يتولون أمر المواسم وأمر القضاء فيهم والفقه والفتوى في الدين. وكانوا يشتهرون بأنهم «النَّسأة» ولقد كانوا ينسئون النَّسيء فيعينون موسم الحج للناس ويثبتونه ويعيّنون الأشهر وبخاصة الأشهر الحرم. وهي الأشهر التي لها حرمة ومنزلة خاصة في نفوس العرب مثل رجب وذي القعدة وذي الحجة ومحرّم.

ولما كان العرب أصحاب حروب وغارات وغزوات، وكان يشق عليهم إذا كانوا في حرب أن يتركوا ما هم فيه فقد أجاز لهم هؤلاء «النَّسأة» تحليل ما حرّمه الله، أو تركه على ما هو عليه حسب ظروفهم وحاجاتهم لا حسب ما فرضه الله واراده. وكانوا اذا أحلوا القتال في شهر من الأشهر الحرم حرّموا مكانه شهراً أخر. حتى وصل بهم الأمر فرفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم؛ فكانوا

يحرّمون من أشق شهور العام أربعة أشهر وذلك « ليواطئوا عدة ما حرّم الله ».

وقد آشتهر في العرب رجال من هؤلاء كانوا أئمة القوم وأصحاب الرأي والفتوى فيهم. مثل وكيع بن سلمة، وعامر بن الظرب، وقصي، وعامر بن جشم ابن غنم. وكانت لهم مكانة مرموقة في قبائلهم؛ فكان الناس يلجأون إليهم لالتماس الحكمة والبركة والشفاء والقداسة.

ولقد كان العرب بشكل عام يحترمون العقود والعهود ويحترمون الأشهر الحرم فلا يقاتلون فيها إلا إذا أفتى النَّسَأة بذلك كما رأينا سابقاً. وهو ضرب من الاحتيال الشرعي الذي لجأ إلى مثله أصحاب السبت من اليهود وانتقم الله تعالى منهم بسببه. وكذلك كانوا لا يعتدون فيها على أحد حتى ولو كان قاتلاً مطلوباً بدم. وكانوا يراعون حرمة الأماكن المقدسة كالمسجد الحرام فلا يتعرضون لمن لجأ إليه أو لاذ به إنساناً كان أو حيواناً.

## أعراف وعادات أخرى:

وكان أيضاً من أعرافهم أن الرجل منهم كان يتقلّد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم ثم يذهب حيث يشاء فيأمن على نفسه بذلك. وكان أهل مكة يفعلون ذلك عندما يخرجون في تجاراتهم، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم فلا يعرض لهم أحد بسوء.

وكان أهل الحضر وسكنة المدن يتفنّنون في لبوسهم ويختلفون في كسوتهم، خلافاً للكاهن، فقد كان لا يلبس المصبغ. وكان لحرائر النساء عندهم زي. ولكل مملوك زي، ولذوات الرايات زي. وكان الشاعر منهم إذا لجأ الى الهجاء دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة[1].

---

(١) بلوغ الارب ٤٠٧/٣.

شعائرهم الدينية:

ولقد كان من شعائرهم الدينية الصلاة والسجود للأصنام والطواف حولها. وإن كانت رواسات الرواة لم تنقل لنا صوراً لتلك الصلاة. وكان السجود معروفاً. ولقد كان من العرب من يسجد للشمس أو للقمر كما كان البعض منهم يسجد للأصنام.

وكان من شعائرهم الصوم. وقد روي أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء وأنها أخذت به في الجاهلية من شرع سابق. وورد أن قريشاً كانت تعظم هذا اليوم كما كانت تكسو الكعبة فيه. فكان صومه من تمام تعظيمه[١].

وورد أن قريشاً كانت إذا أصابها قحط ثم رفع عنها صامت لله شكراً وحمداً[٢].

ويظهر من الروايات المنقولة أن صوم الجاهليين كان عبارة عن امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء.

وكان العرب في الجاهلية يختتنون ويعيّرون الأغْرل وهو الذي لم يختتن. كما كانوا يتحنّثون أي يتبرّرون. ومن ذلك قول حكيم بن حزام في الحديث المرويّ عنه «أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة أي أتقرب بها الى الله تعالى بأفعال الجاهلية»[٣]. وقد ثبت أنه ﷺ قبل الاسلام: «جاور في حراء شهراً من كل سنة وذلك قبل أن يبعث بقليل فيطعم من جاءه من المساكين. فاذا قضى جواره من شهره كان أول ما يبدأ به الكعبة يطوف بها سبعاً قبل أن يدخل بيته. وذكر أن ذلك الشهر كان رمضان»[٤].

---

(١) إرشاد الساري ٦ ١٧٤ باب أيام الجاهلية.

(٢) إرشاد الساري ٦ ١٧٤.

(٣) تاج العروس ١ ١١٦

(٤) الطبري ٢ ٣٠٠.

الحلال والحرام عندهم:

لقد كانوا كما قلنا «يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليها فلا يحلّون حراماً ولا يحرمون حلالاً كما نقله ابن عساكر في التاريخ الكبير»[1]. ومفهوم هذا أنهم وإن كانوا يتقيّدون بالحلال وينفرون عن الحرام. ولكنهم كانوا يعرفون الحلال والحرام من خلال أقوال نسأتهم ورجال الدين فيهم وسدنة أوثانهم. وكثيراً ما يدخلون عن طريقهم في الحرام وهم يظنون أنهم يفعلون الحلال.

وقد روى اليعقوبي أن قريشاً وعامة ولد «مَعَدّ» بن عدنان كانوا يُقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم[2].

## أعظم مواسمهم:

ولقد كانت لهم مواسم يحتفلون فيها ويشهدونها باهتمام. ومن أبرزها موسم الحج الذي كانوا يتهيئون له من دخول شهر شوال. ولقد كانوا يحجّون الى مكة كما يحجّون الى البيوت المقدّسة الأخرى. ويقصدون بيت الله الحرام في مكة أفواجاً ومن كل حدب وصوب. ويتقربون اليه بالهدايا والنذور والقربات. غير أنه كان منهم من لا يعير البيت الحرام حرمة ولا يحفظ له مكانة، فيعدوا عليه وعلى حجيجه، وينال منهم. حتى منّ الله عليهم وحقق لهم الأمان فيه وحوله، ويسّر لهم الرزق الوفير الذي يغنيهم. وقد ذكّرهم الله تعالى بهذه المنّة فقال: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

ولقد كانت مناسك الحج مختلفة عند العرب. كما كانت لبعض القبائل منهم مناسك يتفرّدون بها من دون الآخرين...

---

(١) التاريخ الكبير ١: ٣١٧

(٢) اليعقوبي ١: ٢٢٤

عكاظ ومجنة:

وكان الجاهليون يستعدّون للحج عند حضورهم موسم «سوق عكاظ» فإذا انتهت أيام السوق وأراد بعضهم الحج ذهب الى «مِجَنّة» فأقام بها الى هلال ذي الحجة ثم آرتحل عنها الى «ذي المجاز» ومنه الى «عرفة».

وكانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز مواسم وأماكن أسواق عربيـة، يلتقـي فيهـا العرب من كل مكان، يتبادلون فيها السلع ويمارسون التجارة ويسمرون ويطربـون ويقرضون الشعر ويتفاخرون. حتى أصبحت ذات شهرة عربية واسعة وكتب عنها الرواة والمؤرخون كما كتب كبار روّادها من الشعراء والحكماء والخطباء العديد من القصص والأخبار.

**الطواف:**

ولقد آشتهر الطواف بالبيت على أنه من مناسكهم. فكانوا يطوفون بالبيت الحرام سبعاً كما كانوا يطوفون أيضاً بغيره من بيـوت العبـادة عنـدهـم وحـول قبورهم. وكثيراً ما كان يطوف البعض منهم وهو عريان.

**الحُمسُ والحلّة:**

وكانوا يطلقون على الذين يطوفون بالبيت وهم عراة بأنهم «الحِلّة» كما يطلقون على الذين يطوفون به وهم لابسو ثيابهم بأنهم «الحُمُس»[1]. وتعِلّة الحلة قولهم «لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب» و«لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها»[2].

والعجيب أن هذه العادة كانت تشمل الرجال والنساء على السواء. فكانت المرأة من هؤلاء الحِلّة تطوف عارية. وقيل إن هؤلاء النسوة كنّ يضعن على

---

(١) الطبري ١٧٢/٢ والمحبر ١٧٨.

(٢) الروض الأنف ١٣٣/١.

عوراتهن سبوراً تسترها . أو أنهن يطفن ليلاً خلافاً للرجال الذين يطوفون نهاراً

وقد قيل إن « الحلة » هؤلاء كانوا يأتون الى الحرم ويحاولون استكراء بعض الثياب من « الحُمْس » فإن تم لهم ذلك طافوا به ، وإلا طافوا عراة .. وذلك لأن « الحُمْس » كانوا يتشددون في الدين ويتمسكون بثيابهم حال طوافهم .

وكان هؤلاء « الحُمْس » يقفون في حجهم في طرف الحرم من « نَمِرَة » ويفيضون منه الى المزدلفة ويقولون نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحُمْس . وكانوا إذا أرادوا بعض الأطعمة والأمتعة وهو حجهم تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ثم ينزلون في حجرتهم ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب[1] .

وكانت « الحُمْس » هم قريش ومن ولدت ، وكنانة وجديلة على رواية[2] . وقد يضاف إليهم كل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف من العرب شاركت قريشاً وسارت على نهجها في الحج .

**السقاية :**

ولقد كان يوجد في بيوت العبادة عند الجاهليين أحواض للسقاية فيستقى منها المتعبدون ، أو يتطهرون فيغسلوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم ليسمح لهم بدخول أماكن العبادة أو ليحل لهم إقامة الشعائر الدينية . وبئر زمزم هي البئر الوحيدة الباقية حتى اليوم من أيام الجاهلية .

ولقد كانت سقاية الحجاج من المآثر الكبيرة التي كان يفتخر بها أهل مكة . فكانوا يسقون الحجيج من الزبيب المنبوذ في الماء . وكان العباس عم النبي ﷺ يليها أيام الرسول ﷺ ..

---

(١) الازرقي ١ : ١١٦ .

(٢) النهاية في غريب الحديث ١ : ٢٩٣ .

المذابح والنصب:

ومما اشتهر أمره من عادات الجاهليين المذابح والنصب التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم التي يقدمونها الى آلهتهم، فقد كانت عادتهم أن يجعلوها أمام الصنم وعلى مقربة منه، فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم اسمها «الغبغب».

**المزارات:**

وقد عظم الجاهليون قبور رؤسائهم وساداتهم. واتخذوها أضرحة يزورونها ويتبركون بها ويتقربون اليها بمختلف القربات. ولقد اعتقدوا انها تغيث الملهوف وتعين على نوائب الدهر، وتلبي حاجة المحتاج، بل ذهبوا الى أكثر من هذا، فاعتقدوا أن من لجأ اليها من خائف وطالب حمى كان آمناً مطمئناً.

## الأرواح والقوى الخفيّة وأثرها في حياة الجاهليين:

ولقد تنوعت عقائد الجاهليين وانعكست آثارها في حياتهم اليومية والمعاشية. وكان مما شدّ نفوسهم إليه خوفاً وهلعاً وأطارها شعاعاً الأرواح والقوى الخفيّة. ويعنون بها العمّار والشياطين والمردة والعفاريت. والعمّار جمع عامر وهم الجنّ الذين يسكنون مع الناس. وتبدو آثارهم بين حين وآخر في مجتمعاتهم. فإن تعرضوا للصبيان سمّوا أرواحاً. وإن خبث أحدهم وأصاب بعض الناس بشرّه وأذاه كان شيطاناً. فإن زاد في البغي والعدوان أطلقوا عليه اسم المارد. وإن تمادى خطره واستفحل ضرره صار عفريتاً[1].

ولقد لعبت هذه الأرواح أو القوى الخفية أو الجن أدواراً هامة في حياة الجاهليين، وشكلت ظاهرة بارزة في سلوكهم وتعاطيهم حتى نسبوا إليها ما لم ينسبوه الى الآلهة. وقد طغت على عقولهم، وشغلت نفوسهم بكثير من الهموم والأوهام

---

(١) كتاب الحيوان ٦/١٩٠.

وحدت بالبعض منهم الى الاعتقاد بألوهيتها. أو بقيام المصاهرة بينها وبين الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. أو جعلوها شريكة له في خلقه تقاسمه حكم الكون وتصريف شؤونه والهيمنة على مرافقه وعوالمه.

وقد ذكر القرآن الكريم بعضاً من هذه الوقائع فقال: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾[1]. وقال ﴿وجعلوا لله شركاء الجن، وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾[2]. ويقول: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولّينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾[3].

ولقد طغت الجن على حياة الانسان الجاهلي حتى كان البعض منهم يعوذون بهم من شرّ بعضهم. وهو ما أخبرنا الله تعالى عنه بقوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً﴾[4]. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: «كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً» وكأنهم كانوا يظنون أن الوديان هي مقرّ الجن وملاجىء لهم. ولكي يتخلصوا من أذاهم وشرورهم كانوا يعوذون برؤسائهم لتحميهم وتدفع عنهم أذى أتباعهم. ويقول الربيع بن أنس كانوا يقولون فلان ربُّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ برب الوادي من دون الله فيزيدهم ذلك رهقاً وفرقاً.

ولقد كان بعض الجاهليين يعقدون مع هذه الأرواح أو القوى الخفية أو الجن أحلافاً على التعاون والتناصر ليتخلصوا من شرورهم ومصائبهم. وقد ذكر بعض الرواة قصصاً عن علاقة هذه الأرواح بالانسان الجاهلي. ومنها أن «تأبط شراً»

---

(١) الصافات ١٥٨ - ١٥٩.
(٢) الأنعام ١٠٠.
(٣) سبأ ٤٠ - ٤١.
(٤) الجن ٦.

رفعه كنسا تحت إبطه وأخذه معه الى الحي فصار يبول عليه في الطريق حتى اذا قرب من مكانه ثقل عليه فرمى به فاذا هو الغول[1]. ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية فخافت عليه من سفهاء قريش. ولكنه ألحّ عليها فسمحت له. فلما أكمل الطواف وصار ببعض دور بني سهم عرض له شاب منهم فقتله. فثارت غبرةٌ شديدة في مكة ومات من بني سهم خلق كثير. قتلهم الجن انتقاماً لمقتل آبن هذه المرأة الجنّية. فما كان من بني سهم إلا أن نهضوا مع حلفائهم وعبيدهم وعَلوا الجبال والشعاب والثنايا. وما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا خنفساء ولا شيئاً من هوامّ الأرض إلا قتلوه حتى ضجّت الجن وصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم. فتوسطت قريش وأنهي النزاع وتغلب بنو سهم على الجن »[2].

وكانوا يعتقدون أن الجن تتصادق مع الإنسان، وتتباغض معه، كما قد تقتله. وقد يقع الحب بين الجن والأنس في نظرهم، فتتبع جنيّة إنساناً لحبها له، ويقال لها تابعة. وقد يتبع جنيّ آمرأة من الإنس لحبّه لها فيقال له تابع. وقد يتصاهر الإنسان مع الجن كما كان من عمرو بن يربوع ابن حنظلة التميمي الذي تزوج آمرأة من الجن. وقد نسبت بعض الأسر والقبائل الى الجن مثل بني مالك، وبني شيصان، وبني يربوع بن حنظلة. وعرفوا ببني السّعلاة. ونسب بعض القصاص بلقيس وذا القرنين الى أنهما من أبناء الجن. وقد قال الجاحظ في ذلك « وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية ونقرؤه من كتب السيرة قص به القصاص وسمروا به عند الملوك »[3].

وأياً ما كان الأمر، فقد اهتم العربي الجاهلي بعالم الأرواح وهابه وأعاره الكثير

---

(١) الأغاني ١٨: ٢١.

(٢) الأزرقي ٦: ١١

(٣) المفصل ٦: ٧٣٦

من اهتمامه وعنايته ليصرف عنه أذاه وشرّه، ويقرب منه عونه وبرّه. بل ليسخره لمصالحه وفي رغباته وأهوائه وبخاصة وأن الجن أو الأرواح أوتيت من القدرة ما به تستطيع أن تتشكل بالشكل الذي تريد ،وتفعل الكثير مما تريد.

**الهاتف والرئي:**

وكانوا يؤمنون بالهاتف. وهو أنهم كانوا يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم الخبر فيكون صحيحاً. ولعلّه حديث النفس. كما كانوا يقولون بظهور الجن وترائيهم الحقيقي لمن يتبعونهم من الإنس أو يألفونهم منهم. ولذلك فقد كانوا يقولون مع فلان رئي من الجن أي أليف يخبره ببعض الأخبار أو الأسرار. واشتهر ممن كان له رئي عمرو بن لحي بن قمعة والمأمور الحارثي وعتيبة ابن الحارث بن شهاب.

**الكهانة:**

ويفضي بنا الحديث عن الهاتف والرئي الى الحديث عن الكهانة. وهي بزعمهم الاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ بما سيحدث. ويسمى الذي يقوم بها كاهناً.

ولقد كان للكاهن في المجتمع العربي شهرة بالتحكم بالأشياء، وحل عقدها وإشكالاتها وكان يستقطب الناس ويستميلهم فيقبلون عليه ليحاكموا عنده. وقد ورد الحديث عن الكهانة في القرآن الكريم. وسيأتي عرض ذلك لدى البحث في موقف الاسلام منها.

ولم يكن مفروضاً على الكاهن أن يقوم بمهمته في بيت العبادة فقط، بل كان من حقه أن يقوم بها حيث شاء، في المعبد أو في بيته أو في مكان آخر. فينقل للناس ما يتراءى له وما يوحى به إليه قرينه وشيطانه مما قد استرقه من السمع ولفقه من الأخيلة والصور المناسبة لما يتفق وما يرتقبونه. وكان الناس في الجاهلية

يعرفون ان لكل كاهن شيطاناً يوحي إليه ويمده بالغيب وكذلك لكل شاعر شيطان يلهمه..

والكهانة على كل حال ليست عملية تنبئية ذاتية يقوم بها الكاهن، بقدر ما هي ثمرة مصاحبة أو مصادقة تكون بين الكاهن وأحد أفراد الجن، يألف معها هذا الجني هذا الكاهن ويتردد عليه ويزوده بين الحين والآخر بالأخبار التي يخطفها مشوهة من عالم السماء، كما سيأتي بيانه. ولكي يتم الاتصال بين الإنسي والجني اتصال التلبس، فإن الإنسي يتعرض الى بعض الغيبوبة التي تيسر عملية التلبس تلك. وتيسر من خلالها اتمام الاتصال. وكان الناس يرون آثار ذلك على أجساد الكهان تعباً وضنى فيزيدهم علواً في أنفسهم ورفعة...

ولقد شارك الكهان في حياة الناس في الجاهلية: شاركوهم في همومهم وأحزانهم ومصائبهم. وفي أفراحهم وأعيادهم. في حروبهم وحالات السلام. وكان يسرّهم ما يسرّ قومهم، ويؤلمهم ما يؤلم قومهم. ومن أجل ذلك جاءت الأخبار تقص علينا اشتراكهم في الغزوات والحروب، فكان منهم من يقاتل قتال الأبطال والفرسان، ومنهم من يكتفي بالعمل على تنشيطهم وحثهم على القتال. وكثيراً ما كانوا من أشراف القوم وسراتهم، فكان لهم في نفوس أقوامهم مهابتان: مهابة الشرف ومهابة الكهانة. وكان لهم تأثيرهم البعيد في الاقناع والحمل على الشيء أو الصرف عنه. فكانت كلمتهم هي الأولى في إبرام مهمات الأمور وعقدها كإعلان الحرب أو السلم أو الكشف عن جريمة أو البحث عن شيء مفقود.

ومن أشهر كهان العرب شق وسطيح وصاف بن صياد. وكان شق في زعمهم ذا يد واحدة وعين واحدة ورجل واحدة. كان نصف آدمي. أما سطيح. فقد كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب. لا عظم له إلا الجمجمة. وجهه في صدره. ولم يكن له رأس ولا عنق. وكان من أشهر الكهان في عصره. وأما صاف بن صياد فقد كان الى جانب كهانته يدعي النبوّة ويزعم أن شيطانه يأتيه بما خفي من أخبار الأرض...

وكان أيضا من كهان العرب في الجاهلية سواد بن قارب الدوسي. وقد وفد على رسول الله ﷺ مع قومه وأسلم(١)

وكما كان في العرب كهان، فقد كان فيهم من النساء من يمارس هذه المهنة. وقد كان منهن شهيرات مثل طريفة الكاهنة وسلمى الهمدانية وسجاح والغَيْطلة وغيرهن كثيرات.

**العرّاف:**

وقد يطلق بعض العرب على الكاهن اسم العرّاف. وقد يفرّق البعض بينهما ويرى أن الكاهن يتعاطى البحث عن أخبار الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار والمغيّبات. أما العرّاف فهو الذي يعنى بالأشياء المسروقة والضائعة وبدل أصحابها عليها. ومن الناس من كان يرى أن الكهان هم الذين يتعاطون في الأشياء والأحوال الماضية الخفيّة ويحاول كشفها للباحثين عنها، وان العراف هو الذي يمارس مهمة الكشف عن الأنباء للأحوال المستقبلة.

ولكن يبدو أن الأصح هو أن الكاهن هو من كان يتنبؤ بواسطة تابع جني. والعراف هو الذي ينبأ استنتاجاً ومن خلال مراقبته الأشياء وملاحظته الدقيقة لها وحولها.. ولعلنا لا نجاوز الحقيقة، إذا مثّلنا العرافة بالفراسة ولكن مع افتراق الفراسة عنها بأنها تكون بالاستدلال بهيأة الإنسان وأشكاله.

ويلحق بهما العيافة والفراسة. العيافة التي تكون تنبؤاً بملاحظات حركات الطيور والحيوانات ودراساتة أصواتها. والزجر هو العيافة نفسها. وأصله أن يرمي الطير بحصاة ويصيح فإن ولاّه في طيرانه ميامنة تفاءل به أو مياسرة تطير منه وتشاءم.

ولقد كانت تشيع الى جانب هذه الخصال في الجاهليين خصال أخرى كالحزاءة، وهي النظر في النجوم واحكامها بظنّه وتقديره. ويسمى من يقوم بها

(١) الروض الأنف ١٣٩/١

حر . وكذلك كان يظهر فيهم الراقي وهو الذي يعمل الرقية التي يرقى بها صاحب الآفة كالصرع والحمى وما شابهها.

## الاستقسام بالأزلام:

وكان من أبرز أعمالهم وممارساتهم الدينية أو الاجتماعية استقسامهم بالأزلام. وهي سهام كانت لأهل الجاهليـة لاعتقـادات بها. مكتـوب على «أمرني ربي» وعلى بعضها: «نهاني ربي» فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً من زواج أو صفقة تجارية وغيره، ضرب تلك الأزلام أو القداح؛ فإن خرج الذي عليه «أمرني ربي» مضى لحاجته. وإن خرج الذي عليه «نهاني ربي» لم يمض. وتكون هذه الأزلام في العادة عند بيت العبادة حيث يكون الصنم.

## من عاداتهم وأوهامهم:

على أنه قد كانت لهؤلاء العرب في جاهليتهم عادات وكانت تشيع فيهم أوهام تقوم على أساس أساطير وخرافات. وكانت ذات دور عظيم في حياتهم الاجتماعيـة. فقد كان أحدهم إذا شاء السفر عمد الى شجرة «الرتم» فعقد غصناً منها. فإذا عاد من سفر، نظر في هذا الغصن فإن وجده معقوداً على حاله أعتقد ان امرأته لم تخنه. أما إن رآه منحلاً اعتقد بأن امرأته قد خانته في غيابه[1].

ومنها أنهم كانوا يعتقدون أن المسافر إن التفت وراءه لم يتم سفره. وهو لذلك يتطير لأن في اعتقادهم أنه لا يلتفت وراءه إلا العاشق الذي يريد العود[2].

ولقد كان من عاداتهم أنهم اذا خافوا شرّ إنسان وأرادوا عدم عودته إليهم، أوقـدوا خلفه النيران ليتحول شرّه. ومن أمثالهم: أبعد الله فلاناً وأوقد ناراً إثره. وكانوا إذا افتقدوا أحدهم ولم يعثروا له على أثر، ذهبوا الى بئر قديمة ثم نادوا فيه

---

(١) المستطرف ٧٨/٢

(٢) بلوغ الأدب ٣٨٢/٢

اسم المفقود ثلاثاً فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي، وإلا اعتقدوا بأنه قد مات[1]
وحتى لا يعود الثقيل ومن لا يرغب الإنسان برؤيته عمد أيضاً عقب خروجه من عنده الى كسر بعض الآنية أو رمى حجراً خلفه..

وكانوا إذا شاؤوا دوام الحب بين اثنين، يشقون الرداء أو البرقع؛ فإذا أحبت امرأة رجلاً او العكس ولم يشق أو تشق الرداء فسد حبهما. أما إذا فُعل ذلك دام الحب بينهما ونما[2].

والمرأة المقلاة إذا شاءت أن يعيش ولدها كان عليها أن تتخطّى القتيل الشريف سبع مرات... ولكي ينفّروا الجن من مقاربة صبيانهم كانوا يسمّونهم بأسماء غريبة تنفّر الجن منهم[3].

ومن عقائدهم أن من ولد في الليلة القمراء كان مختوناً. وإذا خرجت رجل المولود قبل رأسه كان ذلك علامة سوء ودليل فساد... واختلاج العين عند الإنسان يعني توقع قدوم غائب... وتعليق الحلي على اللديغ يساعد على شفائه... وبول المرأة بين صفّي المتحاربين يطفيء نار حربهما وينتهي بهما الى السلام...

وكان من عاداتهم أنهم إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له، علّقوا عليه الأقذار كخرقة الحيض وعظام الموتى. وكانوا يفقأون عين فحل الإبل لئلا تصيبها العين وذلك إذا بلغت الألف، فإذا زادت على الألف فقأوا له العين الثانية[4].

وإذا أجدبوا وتضايقوا من انحباس المطر علّقوا السلع والعشر في أذناب البقر وأضرموا فيها النار وأصعدوها في شعاب الجبال أو حرروها منها، فيمطرون[5].

---

(١) بلوغ الأدب ٣: ٣.
(٢) نهاية الأدب ٣: ١٢٦.
(٣) بلوغ الأدب ٢: ٣٢٥.
(٤) الحيوان ١/ ١٧
(٥) بلوغ الأدب ٢: ٣٠١.

وكان البعض منهم يعتقد بوقوع المسخ. وأن « سهيلا النجم » كان عشاراً على طريق اليمن. وكان ظلوما فمسخه الله كوكباً وان « اللات » وهي صنم لثقيف كان في الأصل يهوديا يلتّ السويق في الطائف فمسخ حجراً.

وكان يشيع فيهم السحر. كما كان يشيع في الشعوب التي كانت تنتشر حولهم فيستعينون به في بعض أمورهم. ولا شك أن الكهان ومن كانوا على صلة بأهل الكتاب وخاصة اليهود منهم كانوا يهتمون به ويمارسونه.

ولقد كان لهم بعد، عادات وخصال نقلت عنهم وكانت ظاهرة في مجتمعهم منها وأد البنات وهنّ أحياء. وأكل الربا في افحش صوره، وشرب الخمر وتعاطي الميسر. واستباحة أكل أموال اليتامى ظلماً. ونكاح نساء الآباء بعد موت الآباء. والجمع بين الأختين، وبين البنت وخالتها، والبنت وعمتها. وتعدد الزوجات دونما حدّ. والطلاق من غير أن يكون محدداً بعدد. وتعدد الرجال للمرأة الواحدة ثم تنفرد المرأة بتحديد نسب الولد إن كان لها الى من تشاء منهم.

ولقد تعمق فيهم الاحساس القبلي والعشائري. وتوثـق آرتبـاطهـم بـالقبيلـة والعشيرة آرتباطاً قوياً حتى كانوا لا يراعون معه حقاً ولا عهداً. وقد آندفعوا في حياتهم دونما حسيب أو رقيب من نظام يرجعون اليه اللهم ما عدا الأعراف والتقاليد والعادات التي كان يسهل عليهم خرقها وتجاوز حدودها إذا شاءوا، يحلون ما حرّم الله ويحرّمون ما أحل، ويستحدثون من العادات والشرائع ما لم ينزل الله به من سلطان وذلك تبعاً لأهوائهم ومصالحهم الذاتية..

ولقد كان لهم فوق ذلك أمثال وقصص وأخبار وحكم يمكن الرجوع الى كتب الأدب والأخبار والمغازي والتوسع في الاطلاع عليها. وهي في مجموعها مع ما سقناه آنفا تعبر دونما شك عن نمط حياة العرب في الجاهلية وتعكس صوراً عن طرائق تفكيرهم وتعاملهم المعاشي. وعن نماذج من علاقاتهم فيما بينهم ومع من حولهم من الجوار... ولعلنا مع هذا العرض نكون قد رسمنا الى حدّ ما صورة معبّرة عن حياة العرب في جاهليتهم وعن مناسكهم وأساليبهم فيها.

# الفصل السابع

# موقف الإسلام من ذلك

١ ـ موقف الاسلام من عقيدة الجاهليين في الموت وما بعده
٢ ـ يقينيّة البعث في الاسلام
٣ ـ الموت ليس سكون الجسد
٤ ـ الانسان والروح
٥ ـ التدليل على البعث
٦ ـ موقف الإسلام من الترجيب
٧ ـ الطواف بغير الكعبة والسجود للشمس والقمر
٨ ـ موقف الاسلام من الحُمُس والحلّة
٩ ـ الذبح على النصب
١٠ ـ الاستقسام بالأزلام
١١ ـ موقف الاسلام من الحزاءة
١٢ ـ موقف الاسلام من التطيّر
١٣ ـ موقفه من الكهانة والعرافة والسّحر
١٤ ـ موقفه من ذبائحهم ومناكحاتهم
١٥ ـ تحريم نكاح المشركات والحكمة منه
١٦ ـ الشيوعي صنو المشرك
١٧ ـ مضارة النساء وعضلهن

٤

لقد كان مبعث الإسلام بالهداية والنور، على فترة من الرسل وضلال من الناس، ليقوم بحركة إصلاحية برّة رحيمة بهم، ولينشط بحكمة ومرونة، وعن طريق الكلمة الطيّبة، والموعظة الحسنة والحوار الهادىء البناء وبصبر وتحمل لصرفهم عن النار واجتذابهم الى أجواء الحق الفيحاء والى طمأنينة الحياة وسعادتها وراحة الآخرة ونعيمها المقيم...

ومن أجل هدا فقد كان لهذا الاسلام العظيم، موقف من كل ما كان يسمعه ويراه ويحس به من حياة المشركين، من أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ومناسكهم وعاداتهم وأعرافهم. وكان موقفه هذا ينبع من نور الأزل اللألاء الذي أضفى على أتباعه وصف أنهم ﴿خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون على المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

## موقف الاسلام من عقيدة الجاهليين في الموت وما بعده:

ولقد رأينا فيما سبق أن الجاهليين كانوا يرون الانسان مركباً من جسد وروح وان الموت نهاية الحياة، وأنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ولا جنة ولا نار

ولقد كان هذا الاعتقاد من أبرز ما تصدى له الإسلام من اعتقادات الجاهليين بعد الشرك بالله وتعظيم الأصنام والأوثان والتعبد لها. وذلك لأنه يمثل

---

(١) آل عمران ١١٠

الاعتقاد في الاسلام وبخاصة وأن عقيد
احد اعظم الأصول التي يرتكز اليها
التوحيد التي جاء يعلنها الاسلام بقوة وحزم هي إيمان بالله الخالق البارئ
المصور المحي والمميت والقادر على كل شيء. وإيمان بالرجعة الى الله فيه
السماوات والأرض عن طريق البعث والنشور للحساب والثواب والعقاب.

ولذلك فقد تصدى لعقيدة الوثنيين هذه بقوة. وجرّد عليها حملة تعتمد المنطق
وتؤكد بطلانها بأدلة حاسمة وبراهين قاطعة.

## يقينية البعث في الاسلام:

وكانت طلائع هذه الحملة تأكيد أن البعث يقيني، وأن المشركين في غفلة عنه. يقول الله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربّي لتبعثُن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[1]. ويقول ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبّئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾[2] ويقول: ﴿ثم انكم بعد ذلك لميّتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾[3] ويقول: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4] ويقول: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة، حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردّوا الى الله مولٰهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[5] ويقول: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[6]. ويقول: ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[7].

---

(١) التغابن ٧.
(٢) المجادلة ٦.
(٣) المؤمنون ١٦.
(٤) النحل ٣٨.
(٥) الأنعام ٦١ - ٦٢.
(٦) الأنعام ٣٦.
(٧) المؤمنون ١١٥ - ١١

الموت ليس سكون الجسد:

وقد رد الاسلام دعوى الجاهليين التي كانوا يقولون فيها إن الموت هو عبارة عن سكون الجسد، فأكد لهم ولكل إنسان أن الموت حكم من أحكام الله على الانسان وفعل له سبحانه. وفي ذلك يقول: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾(١).

**الانسان روح وجسد:**

ولكنّه أيّد ما كانوا يقولونه من ان الانسان روح وجسد وثبّته بما أورده من نصوص في القرآن الكريم. ولكن القرآن الكريم يطلق النفس على الروح لأنهما في نظر العلماء شيء واحد(٢). ولأن هذا هو الذي تدل عليها الآثار الصحاح. ومن ذلك حديث أم سلمة قالت: « دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَ بَصَرُه [ أي انفتح ] فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر » وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصرُه، فذلك حين يتبع بَصَرُه نَفْسَه » خرجها مسلم. ويؤيد هذا ويثبته قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنّة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي﴾(٣).

**التدليل على البعث:**

ولقد واجه القرآن الكريم عقلية العرب الجاهليين مواجهة فكرية منطقية اعتمد فيها وسائل الإقناع وساق صوراً من الأدلة والبراهين التي يجد العقل المنصف نفسه

---

(١) الزمر ٤٢.

(٢) القرطبي ١٥/٢٦١.

(٣) الفجر ٢٧ - ٣٠.

أمامها أنه لا محيص له من الخضوع والاقرار وبخاصة في موضوع البعث بعد الموت. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة، وغير مخلّقة لنبيّن لكم ونقرّ في الارحام ما نشاء الى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يردّ الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة اتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾[1]. ويقول: ﴿بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونَزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلعٌ نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج. كذبت قبلهم قوم ونوح وأصحاب الرسّ وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب ٱلأيكة وقوم تبَع كل كذّب الرُسُلُ فحقّ وعيد، أفَعَيينا بالخلق الأول، بل هم في لبس من خلق جديد. ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[2].

ولقد سلك على هذا الغرار في مطارحة القوم والدخول على عقولهم وقلوبهم، وساق العشرات من الأدلة في القرآن الكريم، كلها تؤكد وتجزم بأن البعث حق وأن الموت ليس سكـون الأجساد، وأن الله هو الخالق والمحُيي والمميت. وان الخالق الذي خلق في المرة الأولى يملك كل القدرة على الاعادة والبعث والنشور وان أدلة البعث قائمة بين يدي الإنسان يراها بعينه صباح مساء كإحيـاء الأرض بعد موتها واليقظة بعد النوم وغير ذلك... وحسبنا أخيراً أن نسوق قوله تعالى

---

(١) الحج ٥ - ٧

(٢) ق ٥ - ١٦

معبر عن بعض هذا من سورة الروم ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره. ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السموات والأرض كلٌّ له قانتون وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1].

ولم يكتف القرآن الكريم بالإدلاء بيقينية البعث بعد الموت، وبالأدلة المؤكدة لصحته ويسره على الله تعالى، بل زاد بأن بين ما سيكون عليه حال المنكرين للبعث يوم البعث وبعد الحساب... بيّن ذلك في جوّ من السخرية اللاذعة بهم، وبأسلوب معبر يجعل البعث كأنما هو واقع بالفعل: يقول الله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يخسر المبطلون وترى كل أمةٍ جاثية، كل أمةٍ تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين. وأما الذين كفروا، أفلَمْ تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قُلْتم ما ندري ما الساعة إن نَظُنُّ إلاّ ظنّاً وما نحن بمُسْتَيْقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزُوا وغرّتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يُسْتَعْتبون. فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزير الحكيم﴾[2]. ويقول: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أءنّك لمن المصدّقين أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمدينون. قال هل أنتم مُطّلعون، فاطلع فرآه في سواء الجحيم

---

(١) الروم ٢٥ ـ ٢٧

(٢) الجاثية ٢٦ ـ ٣٧

قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين. أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾[1] ويقول:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جناتٍ يتساءلون عن المجرمين. ماسلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلّين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذّب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمُر مُسْتَنْفِرة فرّتْ من قَسْوره بل يريد كلّ آمرِىءٍ منهم أن يُؤتى صحفاً مُنشَّرة. كلا بل لا يخافون الآخرة كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره...﴾[2].

ولقد نشأ عن هذا النزاع حول الاعتقاد بالبعث وانكاره بين المشركين والرسول ﷺ وآتباعه محاورات كثيرة ومتنوعة روت كتب السيرة بعض أخبارها، وسجل القرآن صوراً معبرة عنها. وقدقال ابن عباس إن عبد الله بن أبي جاء النبي ﷺ وقيل غيره، بعد أن أراه عظماً حائلاً ": يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمَّ!؟ فقال النبي ﷺ: « نعم، ويبعثك الله ويدخلك النار. ونزل قوله:

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلْقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يُحييها الذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون أوَ ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فَسُبْحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[3].

غير أن انكار الجاهليين المشركين للبعث لم يكن عاماً، فقد كان منهم قلّة يؤمنون بالبعث والحشر بالأجساد بعد الموت. وقد روي أن من هؤلاء القلّة من

---

(١) الصافات ٥٠ ـ ٦٣

(٢) المدثر ٣٨ ـ ٥٥.

(٣) يس ٧٨ ـ ٨٣ وراجع الواقعة في الطبري ٢٣/٢١.

كان يعقل «العقيرة» وهي الناقة عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً ويقولون انه يحشر راكبا عليها ومن لم يفعل هذا حشر راجلا ومن هؤلاء زهير ابن أبي سلمى الذي يقول

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم[1].

## موقف الاسلام من الترجيب:

ولقد أتينا مقدّماً على ذكر الترجيب في الجاهلين وقلنا انه كان عادة شائعة عند العرب قبل الاسلام. وذلك أن الرجل كان يذبح أول نتاج إبله أو غنمه للأصنام أو كان ينذر إذا كان كذا وكذا أو بلغ شاؤه كذا فعليه أن يذبح من كل عشرة منها في رجب كذا وكانوا يسمونها العتائر.

ولما جاء الاسلام حرّم الذبح للأصنام قطعاً، ولكنه سمح بذبح العتيرة في رجب وظل الأمر سارياً في صدر الاسلام وأوله ثم نسخ[2] وقد ورد «لا فرع ولا عتيرة»[3].

## الطواف بغير الكعبة والسجود للشمس والقمر:

وقد أبقى الاسلام سنة الطواف بالكعبة، ولكنه وضع لها حدوداً وشروطاً وسنناً. ومن سننه استقبال الحجر بجميع البدن إن أمكن والاضطباع وهو أن يجعل وسط الرداء تحت كتفه اليمنى ويرد طرفيه على كتفه اليسرى ويبقي كتفه اليمنى مكشوفة. ورمل ثلاثة أشواط ومشي أربعة على هينته ابتداء من الحجر الأسود. ويجب أن يكون سبعة أشواط لأن النبي ﷺ طاف سبعاً. كما يشترط فيه ليكون صحيحاً أن يكون الطائف طاهراً من الحدث والنجاسة ومستور العورة. وذلك لما

---

(١) النهاية ١١٥/١

(٢) النهاية ١٧٨/٣

(٣) تاج العروس ٤٤٩/٥

اطاعه الى شرّ إلا أن يتوب الله عليه »[١] .

## موقف الاسلام من الحُمُس والحِلّة :

وكما جعل الاسلام للطواف حدوداً وشروطاً وسنناً ، نظم الحج ، فحدد له وقته وزمنه ومواقيته وأركانه وواجباته وسننه ومندوباته ومبطلاته ومكروهاته وبين فضائله وجعله عبادة خاصة بالله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . وأباح للمسلمين ما كانت الحمس قد حرمته على نفسها كما حرّم ما كانت اباحته جماعة « الحِلّة » من كشف العورة حين الطواف وأوجب سترها مطلقاً وبخاصة أثناء العبادة التي منها الطواف ، بل أوجب لبس ثياب الاحرام فقال تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[٢] وورد عن أبي هريرة ما سبق أن ذكرناه وهو قوله « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر : لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[٣] .

ولقد نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم ومنازلهم من أبوابها خلافاً لما كان يفعله بعض الجاهليين . فقال الله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى . وأتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[٤] .

وقد فهم القرطبي من هذه الآية أن فيها بيان أن ما لم يشرعه الله قُرْبة ولا نَدَبَ إليه ، لا يصير قُرْبة بأن يتقرّب به مُتَقَرِّب . قال ابن خُوَيز مَنْدَاد : إذا أشكل

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان ص ٤٦٤ من مجموعة التوحيد
(٢) الأعراف ٣١ .
(٣) صحيح مسلم ٤/١٠٧ باب لا يحج البيت مشرك
(٤) البقرة ١٨٩

ما هو بر وقربة مما ليس هو بر وقربة أن ينظر في ذلك العمل، فإن كان له نظير في الفرائض والسنن فيجوز أن يكون. وإن لم يكن، فليس ببر ولا قربة. قال وبذلك جاءت الآثار عن النبي ﷺ وذكر حديث ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقالوا! هو أبو اسرائيل [ وهو رجل من الأنصار ] نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظلّ ولا يتكلّم ويصوم. فقال النبي ﷺ «مُرُوه فَلْيَتَكَلّم وليستظِلَّ ولْيُتِمّ صومه». فأبطل النبي ﷺ ما كان غير قربة مما لا أصل له في شريعته وصحح ما كان قربة مما له نظير في الفرائض والسنن[1].

## الذبح على النصب:

وكانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الاسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظّم هذا البيت بهذه الأفعال. فكأنه عليه السلام لم يكره ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾[2] ونزل قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النّصب﴾[3]. وكأن الله تعالى يريد أن يقول إن ما ذبح على النُصب بنيّة تعظيمها يحرم أكلـه كما يحرم أكل الميتة وغيرها من المذكورات في الآية

## الاستقسام بالأزلام:

وقد ورد في الآية أيضاً النهـي عـن الاستقسـام بـالأزلام والحكـم بتحريمه.

---

(١) القرطبي ٢/٣٤٦ - ٤٧.

(٢) الحج.

(٣) المائدة ٣

والازلام قداح الميسر، وأحدها زلم وزُلم وهي كما سبق وعرفنا ثلاثة وكانوا يستقسمون بها الرزق وما يريدون ونظير هذا ما حرّمه الله تعالى أيضاً وهو قول المنجّم لا تخرج من نجم كذا وآخرج من أجل نجم كذا.

ولقد كانت الازلام عند العرب ثلاثة أنواع. الأول ما ذكرناه. والنوع الثاني سبعة اقداح كانت عند هُبَل في جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل، كل قدح منها مكتوب عليه؛ ففي أحدها مكتوب عليه العقل من أمر الديات، وفي آخر مكتوب «منكم» وفي آخر «من غيركم» وفي آخر «مُلصَق» وفي سائرها احكام المياه وغير ذلك.

وكان العرب اذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به الى هبل وبمئة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون. ثم قالوا: يا الهناهذا فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: أضرب، فإن خرج عليه «منكم» كان منهم، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفاً وإن خرج «ملصق» كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف.

وهذه الازلام هي التي ضرب بها عبد المطلب على بنيه إذ كان نذر أن ينحر أحدهم إذا كملوا عشرة.

أما النوع الثالث فهو قداح الميسر. وهي عشرة. سبعة منها فيها حظوظ. وثلاثة أغفال. وكانوا يضربون بها مقامرة لهواً ولعباً. وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدمين. والاستقسام بها هو طلب القَسْم والنصيب.

وقد بين الاسلام أن هذا العمل هو باطل ومحرم. والنوع الثالث هو من قبيل أكل المال بالباطل. والأنواع الثلاثة لا تخرج عن كونها ضرباً من التكهّن والتعرّض لدعوى علم الغيب. قال ابن خُوَيز مَنْداد: ولهذا نهى أصحابنا عن الأمور التي يفعلها المنجّمون على الطرقات من السهام التي معهم ورقاع الفأل، وقال

الكيا الطبري . وانما نهى الله عنه فيما يتعلق بأمور الغيب . فإنه لا تدري نفس ماذا يصيبها غدا فليس للازلام في تعريف المغيبات أثر .

**موقفه من الحزاءة:**

ويلحق بالحديث عن الازلام الحديث عن الحزاءة التي هي النظر في النجوم وأحكامها بالظن والتقدير الشخصي. وهو ما لا يزال كثير من ذوي الفكر المحدود والنظرة القاصرة والثقافة الضحلة في عصر النور والعلم الذي نعيش فيه . يتيهون في ضلالات الأوهام ويخدعون بدعوى التنجيم في معرفة الغيب وكشف وقائع المستقبل وحقائقه. فيقبلون القول بأنهم منتسبون الى برج النسر أو برج العذراء أو الحمل أو الى غير ذلك مما ينسجه المنجمون ويروّجون له ويفترون فيه الأكاذيب ليزينوا لصغار العقول من الناس الاعتقاد بأنه حقيقة ، وذلك استغلالاً لطيب قلوبهم وتنشيطاً لإغواءات أبالسة الإنس والجن والشياطين.

وإنا كثيراً ما نقرأ في صحف اليوم أو نسمع من بعض الاذاعات توجيه صغار الناشئة ومن هم في مستواهم الذهني من الكبار الى هذه الأخيلة والدعاوى ليغرسوا تأثيرها في نفوسهم. فيقولون لهم إن كنت من مواليد يوم كذا فأنت من برج كذا ، ولذلك فإنك في هذا اليوم سيكون من شأنك كذا وكذا ، فيتلقّفها هؤلاء على أنها حقائق ، ويندمجون يومهم كله مع تلك الإيحاءات اندماجاً مفيداً أو ضاراً بنسبة ما تكون عليه تلك الإيحاءات من الخير أو الشر والنفع والضرر . ويجهل هؤلاء أو ينسون أن كل ذلك تنجيم ورجم بالغيب ، وافتراء على الحق والواقع ، وتضليل لأفكار الناس ودفع بهم ليقعوا في أتون الخرافات وأجواء الأساطير الحميمة ، وليخضعوهم لسلطة أوهامهم ليذوقوا حرق لهيبها وسوء تعذيبها . . .

والتنجيم والسحر من أرومة واحدة؛ ينهلان من كأس مزاجها من تخريف وتزييف وتدجيل ولقد كان دجالو اليهود كما قلنا أول من أخذ يتعلم ألاعيب السحر وتمويهاته . فافتروا على نبي الله سليمان بن داوود بأنه كان يعمل بالسحر ،

ووسوسوا به الى بعض المسلمين فصدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر حتى ألَمّ بهم بعض مغفلي المسلمين أو ذوي الأهواء منهم ممن يكونون في كل عصر ومجتمع وشعب حتى هذا التاريخ، فيتلون أقساماً وعزائم ويخطّون خطوطاً وطلاسم، ويسمّون ذلك خاتم سليمان وعهوده ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت.

وقد زعم اليهود ان سليمان عليه السلام سحر، وأنه جمع كتب السحر ودفنها تحت كُرسيّه، وان الناس قد استخرجوها من بعده ثم تناقلوها. وانه قد ضاع خاتمه الذي كان به ملكه، ووقع في يد آخر، وجلس مجلسه للحكم، وغير ذلك مما أمعنوا فيه كذباً وتزويراً وبهتاناً. وقد أكّد الله تعالى لنا كذب أولئك وفضح حالهم المخزي. وأخبرنا بأن سليمان كان نبياً كريماً وعبداً صالحاً بريئاً من كل ما نسبه إليه دجاجلة اليهود ومشعوذوهم. كما أخبرنا بأن الجن مثلهم كمثل غيرهم من الخلق لا يعرفون الغيب ولا يملكون الاطلاع عليه. قال تعالى: ﴿ولسليمان الريح غُدُوُّها شهر ورواحها شهر، وأسَلْنا له عين القِطْر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابِ وقدور راسيات اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور. فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابّة الأرض تأكل مِنْسَأته، فلما خرّ تبيّنت الجن أنْ لَوْ كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1].

ولقد ذكر القرآن الكريم السحر، وأكثر من الحديث عنه ليلفت أنظار المؤمنين الى أنه تمويه وينبّههم الى أنه باطل. وليذكّرهم بوجوب التيقظ لألاعيب الممسكين به من السحرة والمشعوذين والمنجّمين حتى لا يسقطوا تحت تأثير باطلهم وينجرفوا في مخاطر تهويلهم.

---

(١) سبأ ١٢ - ١٤.

ويسحم موقف الاسلام هذا من السحر والتنجيم وما تفرع عنهما والتحق بهما، مع موقفه من الأصنام والأوثان والوثنية عامة فهو يحكم بتحريمها بل باعتبارها من الكبائر كما سبق وقلنا يقول الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[1]

والطاغوت كما ثبت مفهوم عام يشمل كل ما عُبد من دون الله، وكلّ من رضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة لله ورسوله»[2] وعليه فإن الشيطان طاغوت والذي يحكم بغير ما أنزل الله طاغوت. والذي يدّعي علم الغيب من دون الله طاغوت. واللجوء الى العائذين بالجن لاستطلاع آرائهم ومعلوماتهم بالمغيبات مع الاعتقاد بأنهم يعلمون ذلك لجوء الى الطاغوت واحتكام إليه. وكذلك الاعتماد على السحرة والاستعانة بهم للافساد بين الناس واستغلال المغفّلين والبسطاء منهم والعيث في الأرض يقول الله تعالى: ﴿ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً﴾[3]

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن مثل هؤلاء يكون لهم القرين من الشيطان فيخبرهم ببعض ما يسترقه من السمع من حديث الملائكة في السحاب ما يخيّل إليهم أنه الذي سمعوا، وليس كذلك دوماً وغالباً، فيختلط لديهم الوهم بالحق والكذب بالصدق، ويكون ما هو تنجيم ورجم بالغيب. وقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال: ﴿إن الملائكة تنزل في ـ السحاب ـ فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه الى الكهان فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم»

---

(1) النحل ٣٦

(2) مجموعة التوحيد لابن تيمية ص ٨

(3) النساء ٦٠

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال النبي ﷺ «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم!! قال رسول الله ﷺ: «لا! فإنه لا يُرمى بها لموت أحد أو لحياته. ولكن ربنا تبارك وتعالى اذا قضى أمراً سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل السماء الذين يلُونهم ثم الذين يلُونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء. ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا؟! فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا. وتخطف الشياطين السمع فَيُرْمَوْن، فيقذفونه الى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق» ولكنهم يزيدون، وما لم يجيئوا به على وجهه فهو ولا شك كذب وآفتراء والمنقول له الخبر يضيع بين هذا وذاك وهو يظن أن ما يقال له هو الحق والصدق!!

وقد روي أن الاسود العَنَسِيّ الذي آدعى النبوة، كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيّبة. فلما قاتله المسلمون، كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه آمرأته بعد أن تبيّن لها كفره فقتلوه. وكذلك كان لمسيلمة الكذاب من الشياطين من يخبرونه بالمغيبات ويعينونه على بعض الأمور. وأمثال هؤلاء كثير مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادّعى النبوّة. وكانت الشياطين تساعده فتخرج له رجليه من القيد، وتمنع السّلاح أن ينفذ فيه. وكانت الرخامة اذا مسحها بيده تسبّح. وكان يُري الناس رجالاً ورُكباناً على خيل في الهواء ويقول هي الملائكة. وإنما كانوا جناً. ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه. فقال له عبد الملك بن مروان إنك لم تسمّ الله. فسمّى الله فطعنه فقتله»[1].

وللجن كالانسان قدره. وقد تتجاوز قدرته قدرة الإنسان كما قد تتجاوز

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان من مجموعة التوحيد ٤٥٨ - ٥٩

قدرة بعض الناس البعض الآخر. ولكن المعلوم والثابت أن قدرة الجن تبقى محصورة في الشواهد من الأمور التي قد تكون أحياناً غيبيّة بالنسبة الينا باعتبار أن الجن أسرع حركة من الإنسان وأقدر على سرعة التنقل والتشكل والنفاذ، وباعتبار أنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه. وقد ثبت في القرآن الكريم أن عفريتاً من الجن تعهد لسليمان عليه السلام بأن يأتيه بعرش بلقيس بفترة زمنيّة لا تزيد عن الفترة التي يقضيها للقيام من مقامه. كما ثبت أن منهم من كان يغوص له ويبني. ومثل هذه القدرة قد تيسّر لصاحبها الكثير مما يخيّل لمثلنا معه أنه من الأمور الغيبية وهو في الحقيقة من الأمور الحاضرة ولكنه لنا غير مرئي أو غير معروف.

**موقفه من التطير:**

ولم يكن التطير الذي كان شائعاً في الجاهلية، أقل نصيباً من سواه من توجه إنكار الاسلام عليه، فقد ثبت أن الرسول ﷺ لم يكن يتطير من شيء[1]. بل كان ينهى عنه حتى أنه أدرجه مع السحر والكهانة فقال «ليس منا من تطيّر أو تطيّر له أو تكهّن أو تَكُهِّن له أو سَحَرَ أو سُحِر له»[2].

والتطير هو التشاؤم ببعض الأسماء أو الأشخاص أو الأمكنة أو الأزمنة وغيرها مما شاع بين الناس.

وقد أخبرنا الله تعالى عن أقوام سابقين كانوا يتطيرون من بعض الرسل. فأخبرنا عن فرعون وقومه بأنهم كانوا إذا أصابهم سوء: «يطَّيَّروا بموسى ومن معه»[3] وان قوم صالح اطيروا به وبمن معه فقالوا له: «اطَّيَّرْنا بك وبمن معك» وأنه أجابهم بقوله: «طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون» وأن سبب تطير الأقوام هو أن الرسول كان يطلب إليهم تغيير ما كان عليه آباؤهم من عقائد وعادات

---

(١) جامع الأصول من حديث الرسول لأبي السعادات ١/٣٩٤.

(٢) الطبراني عن ابن عباس

(٣) الأعراف ١٣١

فرون في ذلك شؤماً. والحق أن سبب شؤمهم هو ما كان يكون منهم من كفر وعناد فيه. ولذلك كان الرسول يجيبهم « طائركم معكم » أو « عند الله » لأنه سينتقم منهم شديد انتقام حال بقائهم على شركهم وكفرهم.

ولقد حدّثتنا كتب السير أن الوثنيين قد أوغلوا في هذا التطير إيغالاً شديداً حتى كان من أثره تشاؤمهم من الهام ومن صفر وخوفهم من العدوى. وكان من الذائع آعتقاد بعضهم أنه إذا مات أحدهم أو قتل آجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة تطير وترجع الى رأس القبر كل مئة سنة: فكان من قولهم بنات الهام [ مخ الدماغ ] وأن خروجها يكون من الأنف أو الفم ومن ذلك قول لبيد:

فليس الناس بعدك في نفير ... وليسوا غير أصداء وهام

وقد قالوا إن الصدى هو ما يبقى من الميت في قبره وهو جثته. وقالوا غير ذلك مما لا سبيل الى إيراده كله. ولكن الذي لا بدّ من إيراده هو أن الرسول ﷺ أنكر هذا كلّه، وآعتبره باطلاً ولغواً وقال: « لا عدوى ولا طِيَرَة ولا هامة ولا صفر »[1] وقد ذكر بعض العلماء أن المراد من « صفر » في الحديث دابّة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب. فأبطل النبيّ ﷺ هذا الاعتقاد ونفى أن تكون معدية.

وليس من هذا الباب طلب الفأل. فقد كان ﷺ يعجبه أن يسمع يا راشد يا نجيح كما أخرجه الترمذي. ولقد كان يعجبه ذلك لانشراح النفس له واستبشارها بقضاء الحاجة وبلوغ الأمل فيحسن الظن بالله عزّ وجل وقد قال: ﴿انا عند ظنّ عبدي بي﴾ وكان يكره الطّيرة لأنها من أعمال أهل الشرك ولأنها تجلب ظن السوء بالله. قال الخطابي: الفرق بين الفأل والطيرة ان الفأل إنما هو من طريق حسن الظنّ

---

(١) المفصل ٦/١٣٩.

ولئن كان الاسلام قد تصدى للشرك قديما وحديثا. لأنه يشجع على الاعتقاد باله آخر أو آلهة اخرى مع الله ويرفض الإيمان بالكتب والملائكة والنبيين واليوم الآخر والحساب والعقاب والجنة والنار، فإنه لا يسعه أيضاً أن يقف من الشيوعية إلا مثل وقفته من الشرك. ذلك لأن الشيوعية أسوأ اعتقاداً من الشرك فهي تزيد عليه بأنها تنكر أصلاً الاعتقاد بوجود الله، ثم تشترك معه بأنها ترفض الايمان بالكتب والنبيين والملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب والجنة والنار وانها لعقيدة تكاد تكون شبيهة بعقيدة الدهريين الذين كانوا يرون أنه ليس ثمة الا هذه الدار يموت فيها قوم ويعيش آخرون. وليس هناك من يوم آخر ولا معاد ولا قيامة ولا صانع. وان الذي يهلك الناس الليل والنهار وهو الذي يحييهم. وقد ذكر الله تعالى لنا عقيدة هؤلاء هذه في قوله: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم إلا يظنّون﴾[1].

ويؤسفنا أن كثيراً من المسلمين في هذا العصر لا يلتفتون الى هذه الحقيقة ولا يعيرونها ما تستحق من الوعي والرعاية وتطبيق الحكم الشرعي، فيقعون في خطأ خطير حيث يبيحون زواج بناتهم من شيوعيين أو يزوجون أولادهم من شيوعيات وأمثالهم من الملاحدة والزنادقة والمارقين من الدين. وما أكثر أنواعهم واعدادهم في هذه الأيام، علماً بأنهم يعرفون منهم جميعاً إنكار وجود الله أصلاً ولا يؤمنون بالتالي بالنبيين والكتب المنزلة والملائكة واليوم الآخر. وكان الجدير بهم أن يعلموا بطلان هذا الزواج لتحريم الاسلام له؛ ذلك لأن الشيوعية لا تقل خطراً على الاسلام والمسلمين ومجتمعاتهم من الشرك لأن الشرك يعترف بمبدأ الألوهية ولكنه يعددّ فيها وينوع ضلالاً أو كبراً وعناداً وأما الشيوعية فترفض أساس العقيدة بوجود الله الخالق البارىء المصوّر!!.

من أجل هذا كان لا بد من لفت النظر الى وجوب أن يطبق على الشيوعيين

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٥٠

والملاحدة ما يطبق على المشركين. وذلك بتحريم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم أو إباحة تزويجهم من نسائنا. وبتحريم السماح لهم بدخول المسجد الحرام. وبأن يطلب الحذر في التعامل معهم لأنهم كالمشركين لا ايمان لهم ولا عهد ولا يرعون في مؤمن إلا ولا ذمّة يرضوننا بأفواههم وتنطوي قلوبهم على البغض لنا والحقد علينا.

**مضارة النساء وعضلهن:**

وتبعاً لاختلال مقاييس الإباحة والحظر بالنسبة للأشياء والأقوال والأعمال عند العرب في الجاهلية، فقد استباحوا مضارّة نسائهم وعضلهن وإساءة عشرتهن دونما جريرة ترتكبها المرأة أو خطيئة تستحق عليها ذلك. ولما جاء الاسلام رفض هذه المعاملة ونهى اتباعه عن ممارستها لما فيها من الجور، وأمرهم بإمساك أزواجهم بالمعروف أو تسريحهن بإحسان يقول الله تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة﴾[1].

وقد ورد أنه كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال في تزويج النساء. وقد يزوج الرجل المرأة بمن تكره، ويمنعها ممن تحب لمحض الهوى. ويتحكم الرجل بمطلقته فيمنعها من أن تتزوج أنفةً وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره، فكان يصدّ عنها الأزواج بضروب من الصدّ والمنع، كما كان يراجعها في آخر عدتها عضلاً وإيذاءً. وفي صحيح البخاري من حديث معقل بن يسار قال: «كان لي أخت فأتاني ابن عم لي فانكحتهاإياه. فكانت عنده ما كانت، ثم طلّقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة فَهَوِيَها وهَوِيَتْه ثم خطبها مع الخطاب فقلت له: يا لكع! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ والله لا ترجع إليك أبداً. وكان رجلاً لا بأس به. وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه. فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه فأنزل قوله: ﴿وإذا طلقتم النساء فَبَلَغْن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن

---

(١) النساء ١٩.

ومما ورد في القرآن من مثل هذه الآيات دليل على أن الأقوام السابقين كانوا يسرفون في الأخذ بمبدأ التطير. بل ويستندون اليه في كثير من اعتقاداتهم وأعمالهم السلوكية. كما فيه توجيه حكيم لرفض هذا الأسلوب في الحياة وفي الاعتقاد. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل. قالوا يارسول الله وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيّبة» وروى أبو داوود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل ولا تردّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك، وما منا إلا ويقع في نفسه شيء، ولكن الله يذهبه بالتوكل». ولأحمد من حديث ابن عمر: «من ردّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قالوا: فما كفّارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلاّ خيرك ولا طَيْر إلا طيرُك ولا إله غيرك»[1].

ولم يقبل الاسلام فعل الكهان والعرافين وآعتبر المصدق بهم كافراً بما أنزل على محمد كما اعتبرهم من الطواغيت وعملهم من الطاغوت لأنهم يتلاعبون بذكائهم ومهارتهم بعقول ضعفاء الناس وبسطائهم يقتنصون أموالهم ويدفعون بهم الى الانحراف عن سبيل الحق والخير الى سبيل الباطل والشر. ولقد تناولهم القرآن في مناسبات عدة مشنّعاً عليهم. لاعناً لهم ولكل من يتبعهم. ومن قوله تعالى فيهم ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[2] ومنه أيضاً ﴿الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾.

---

(١) مجموعة التوحيد لابن تيمية ١٦٤.

(٢) البقرة ٢٥٦

(٣) النساء ٥١ ـ ٥٢.

وإن أهل اللغة يطلقون الجبت والطاغوت على الصنم والكاهن والساحر والسحر وكل ما لا خير فيه. فالطاغوت اذن هو من الكلمات المرادفة للفظة كاهن ولفظة جبت. ومن هذا يفهم أن الكاهن كان فعله من الخطورة والضرر بحيث لا يقل سوءاً وأذى عن فعل الشيطان والساحر.

وقد سئل الرسول عن الكاهن ومكانته بعد ما كان له من الأثر والوجود في حياة العربي قبل الاسلام، وفي المجتمع العربي الجاهلي فورد: «سأل رسول الله ناس عن الكهان فقال: ليسوا بشيء» فقالوا يا رسول الله انهم يحدثونا أحياناً بشيء فيكون حقاً فقال: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي فيقرّها في أذن وليّه فيخلطون معها مئة كذبة»[1]. وفي ابن هشام ان رسول الله سأل نفراً من الأنصار فقال: «ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به. قالوا يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها مات ملك، ولد مولود، مات مولود، فقال: ليس ذلك كذلك، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً أسمعه حملة العرش فسبّحوا، فسبّح من تحتهم، فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي الى السماء الدنيا فيسبحوا، ثم يقول بعضهم لبعض مم سبّحتم؟ فيقولون سبّح من فوقنا فسبّحنا لتسبيحهم، فيقولون ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا الى حملة العرش فيقال لهم مم سبّحتم؟ فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان، فيهبط به الخبر من سماء الى سماء حتى ينتهي الى السماء الدنيا فيتحدثوا به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهّم واختلاف ثم يأتوا به الكهّان من أهل الأرض فيحدّثوهم به فيخطئون ويصيبون فيتحدّث به الكهان فيخطئون بعضاً ويصيبون بعضاً»[2].

ولما جاء الوحي الرباني ليعرّف الناس بمحمد كرسول بعثه الله واختاره لهم بشيراً ونذيراً، وكأنهم ظنوا أنه من قبيل الكهان، فبرأه الله من ذلك وأكثر من نفي

---

(١) ارشاد الساري ٨/٤٠٠.

(٢) ابن هشام ١/١٣٧ من الروض الأنف.

هذا الوصف عنه فقال ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾

وقد جاءت النصوص الكثيرة بالنهي عن الكهانة ومنها قوله ﷺ: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً» وقوله من أتى كاهناً فصدقه بما يقول كفر بما أنزل على محمد» وعن ابن عباس في رواية ابن عطية انه عرف الطواغيت بأنهم تراجمة الأصنام الذين يكونون بين أيديهم يعبرون عنها بالكذب ليضلوا الناس.

لقد نهى الاسلام عن السحر واعتبره محرماً ومن السبع الموبقات. كما نهى عن اتخاذ التمائم والرقى وحكم بأنها من الشرك. وعن أبي هريرة عنه ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا يا رسول الله: ما هذه؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وللنسائي من حديث أبي هريرة «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه» ورغم اقرار القرآن الكريم بوجود السحر والساحرين، فقد حكم بأنه تخييل وكفر وأن ضرره موقوف على أذن الله تعالى، ولذلك فإن حسن التوكل عليه يساعد على دفع غائلة السحر وشره. يقول الله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾[1] ويقول: ﴿فإذا حبالهم وعصيّهم يُخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ ويقول: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله﴾[3].

ولكي يساعد المسلم المؤمن على التخلص من تأثير إيهام السحرة والسحر، علمه سبحانه تعالى أن يتعوذ به ويتحصن بكلماته فقال: ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر

---

(١) البقرة ١٠٢.

(٢) طه

(٣) البقرة ١٠٢

ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات في العقد . ومن شرّ حاسد إذا حسد ﴾ .

وللمؤمن مندوحة في كلمات الله ، فليستعذ بالله وليتحصن بكلماته التامات من شرّ ما خلق ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر السحرة والساحرين وليكثر من تلاوة كتاب الله الكريم فإنه له حافظ . والله تعالى يقول: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ .

وقد قال الزمخشري في حديثه عن النفاثات في العقد ، النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين ، والنفث النفخ مع ريق . ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه ...[1] .

وقد روى عقبة ابن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بينما أنا أسير مع النبي ﷺ بين الجحفة والأبواء اذ غشتنا ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله يتعوّذ بـ « أعوذ برب الفلق » و« أعوذ برب الناس » ويقول : يا عقبة تعوذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما . وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها » .

وأما بالتمائم والرقى والتعاويذ ، فقد ورد فيها إذا لم تكن بكلمات الله ، النهي عنها اعتبارها من أعمال الشرك والضلال . يقول الله تعالى : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾[2] ويقول : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات

---

(١) تفسير القاسمي ١٧/٣٠٣

(٢) الأحقاف ٣ .

﴾ وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر فقال: « ما هذا » قال من الواهنة. فقال: « انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا. فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً ». وله عن عقبة ابن عامر مرفوعاً: « من تعلق بتميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري انه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولاً ان لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت ». وعن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك » والتِّوَلة شيء كانوا يصنعونه في الجاهلية يزعمون أنه يحبب المرأة الى زوجها والرجل الى امرأته ». وللرقى حكمان؛ فهي محرّمة إذا كانت مكتوبة بلغة أو حرف لا يفهم منه شيء ويخشى أن يتخللها سحر أو كفر. وهي مستحبة إن كانت مكتوبة بلغة عربية أو لغة مفهومة وكانت تستعين بآيات الله وذكره لأنها في هذه الحالة بمثابة الدعاء.

وعلى كل حال فإن على المسلم ألا يستغيث بغير الله وألا يبحث عن الشفاء والحاجة إلا عند الله. يقول الله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ وروى الطبراني أنه كان في زمن النبي منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: « إنه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله عزّ وجل ».

## موقفه من ذبائحهم ومناكحاتهم:

وقد فرق الاسلام بين المسلم والكافر المشرك فاعتبر ذبائح المشرك كلّها محرمة على المسلم لا يباح له أكلها، وذلك لأن المشرك لا يذكر عند ذبحها اسم الله تعالى،

---

(١) الزمر ، ٣٨

بل يذكر اسم صنمه أو يذبحها عنده تعظيماً له وأملاً بالفوز برضاه. ولقد أوضح الاسلام أن كل ذبيحة لا يذكر عليها اسم الله، أو تذبح على النصب أو عند صنم هي كالميتة وفي حكمها كالمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يأكلوا الطيبات ويتجافوا عن الخبائث ولا يتّبعوا خطوات الشيطان، وخطوات من خضعوا لإغرائه وتأثيره كالمشركين وغيرهم ممن ينطبق عليهم حكمهم فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم وآشكروا لله إنْ كنتم إياه تعبدون. إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾[1] وقال: ﴿حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النُصُب﴾[2] وقال: ﴿قل لا أجد فيما أوحي الى محرّماً على طاعم بطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجسٌ أو فسقاً أهل لغير الله به فمن آضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم﴾[3].

وقد كان مشركو العرب يأكلون هذه المطاعم الخبيثة ولا يبالون فيأكلون الميتة وما هو في حكمها، ويأكلون الدم المسفوح. ويأكلون ما ذبح من غير أن يذكر اسم الله عليه، أو ما ذبح على النصب، وهي ما نصب من أصنام أو حجارة وعبدت من دون الله. وقد كانت منتشرة حول الكعبة، وقد خصص بعضها ليُهَلَّ عليها ويذبح لغير الله تقرّباً الى آلهتهم وتعظيماً لها.

**الحكمة من فرض ذكر اسم الله على الذبيحة:**

وقد شاء الله تعالى ألا يأكل المسلم المؤمن من لحوم الحيوانات المباحة بنص الكتاب إلا إذا كانت مذكّاة وذكر اسم الله تعالى عليها. وذلك لأنه يريد من

---

(١) البقرة ١٧٢ - ١٧٣.
(٢) المائدة ٣.
(٣) الأنعام ١٤٥

لسم ان يفرده بالالوهية والإكبار . ويريد أن يوثق صلة عبده المؤمن به فيكون دائم الذكر له ودائم الوعي بأنه بإذن الله يذبح هذا الحيوان وبإذن الله يأكله . ولأنه يريد أن يرى عبده متجافياً عن فعل المشركين الذين يذكرون اسم غير الله عند الذبح كاللات والعزّى

## تحريم نكاح المشركات والحكمة منه .

وقد حرّم الاسلام على المسلم نكاح المشركات كما حرّم على نساء المؤمنين الزواج من المشركين مهما كان حالهم وأياً كانت مكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية والمالية . وذلك لأن الزواج في نظره ارتباط اجتماعي دائم مدى الحياة ، ذو مفعول إيجابي في حياة الفرد والجماعة ؛ فما لم يقم بين الزوج والزوجة انسجام في العقيدة والدين استحال أن ينشأ بينهما تبادل الاحترام والثقة وان يوثق ارتباطهما عنصر المودة والرحمة ، وتعذر عليهما بالتالي بناء الأسرة وهي ركيزة المجتمع وأساس وجوده ، بناءً متيناً يضمن استقرارها وأمنها وسعادتها . فإذا اختلفت عقيدة الزوج مع عقيدة الزوجة في الأصول والجذور تعرضت علاقاتهما الى كثير من مظاهر النزاع والتصدع وفقدت كل مبررات التعاون والثقة اللذين يشكلان العناصر الأساسية لهيكل الأسرة.. ومن أجل ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ولا تَنْكِحوا المشركات حتى يؤمِنَّ وَلَأَمَةٌ مؤمنة خير مِن مشركة وَلَوْ أَعْجَبَتْكُم ، وَلا تُنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا ، وَلَعَبْدٌ مؤمن خير من مشرك وَلَوْ أَعْجبكم أولئك يَدْعون الى النار والله يدعو إلى الجنّة والمغفرة بإذنه ، ويبيّنُ آياته للناس لعلّهم يتذكّرون﴾ (١) .

وروى الواقدي وغيره عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ بعث رجلاً من « غنى » يقال له مرثد ابن أبي مرثد وهو حليفٌ لبني هاشم . الى مكة ليخرج أناساً

---

(١) البقرة ٢٢٢

من المسلمين بها أسرى. فلما قدمها سمعت به آمرأة يقال لها عناق. وكانت خليلة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها. فأتته فقالت: «ويحك يا مرثد ألا تخلو؟» فقال لها: إن الاسلام قد حال بيني وبينك وحرّمه علينا، ولكن إنْ شئت تزوجتك. فقالت نعم. فقال إذا رجعت الى رسول الله آستأذنته في ذلك ثم تزوجتك. فقالت: أبي تتبرّم؟! ثم استعانت عليه فضربوه ضرباً موجعاً ثم خلّوا سبيله. فلما قضى حاجته بمكة انصرف الى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي بسببها. فقال يا رسول الله أيحل لي أن أتزوجها وفي رواية أنها تعجبني فنزلت هذه الآية[١].

وقد اتفق العلماء على أن المراد بالمشركات في هذه الآية غير الكتابيات. وتحريم الزواج بهنّ جاء تغليظاً لأمر الشرك، ولأن المشركة ليس لها دين يحرّم الخيانة ويوجب عليها الأمانة والعفة ويأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، فهي موكولة الى طبيعتها وما تربت عليه في عشيرتها من خصال الجاهلية وخرافات الوثنية وأوهامها وأماني الشيطان وأحلامها، ولذلك فإنها قد تخون زوجها وتفسد عقيدة أولادها ولا تربّيهم التربية الصالحة فإن ظل الرجل رغم ذلك على اعجابه بجمالها كان ذلك عوناً لها على التوغّل في ضلالها وإضلالها.

**الشيوعي صنو المشرك:**

وقد آبتلينا في هذا العصر بعقائد منافرة للإسلام كالشيوعية وهي مذهب مادي لا يؤمن بغير المحسوس. وينكر بالتالي جميع الغيبيّات، وفي مقدمتها وجود الله. وقد نشطت كثيراً حتى دانت بها دول وخضعت لها شعوب وتأثر بها أفراد من مختلف الديانات والمعتقدات. ولقد بنت حضارة، ولا تزال تمارس دورها الخطير ببراعة، وأخذ ينتشر وجودها في مختلف بقاع الأرض وتتعمق مبادئها وأفكارها ويكثر اتباعها وأنصارها.

---

(١) تفسير المنار الجزء الثاني ص ٣٤٨.

بالله والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت النبي ﷺ يقول: «لا طِيرَةَ وخيرُها الفأل» قيل يا رسول الله. وما الفأل؟ قال «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»(١).

ولقد روى أيضاً أن العرب كانوا يتيمّنون بالسانح، وهو الذي يأتي من ناحية اليمن، ويتشاءمون بالبارح وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون بصوت الغراب، ويتأولونه بأنه البين والفراق. وكانوا أيضاً يستدلّون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. وكذلك بالظباء اذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت: «من لي بالسانح بعد البارح»(٢).

وكثير من الناس اليوم تشيع فيهم مثل هذه الخصال فيتطيرون من مشهد أو يتفاءلون من آخر، فيتفاءلون مثلاً من مشهد الغنم عائدة في المساء الى حظائرها، ويتشاءمون من عواء الكلب الشديد الطول ليلاً كما يتشاءمون من المشاهد القبيحة اذا صبحتهم وغير ذلك.

وقد جاء الاسلام كما قلنا سابقاً بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طير أو من أي مشهد. وقال: ﴿أقِروا الطير على وُكُناتها [أي بيضها] وذلك لأن كثيراً من أهل الجاهلية كانوا كما قلنا اذا أرادوا الحاجة أتوا الطير في وَكْرِها فنفّروها، فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع وهذا هو البارح عندهم. ولقد روى عن عكرمة أنه قال: كنت عند ابن عباس فمرّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر. وقد مضى الزمن الذي يكون فيه في

---

(١) القرطبي ٦/ ٦٠.

(٢) مثل يضرب للرجل يسيء الرجل فيقال له: سوف يحسن إليك، واصله أن رجلاً مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك. فقال: «من لي بالسانح بعد البارح».

الناس من يعلم منطق الطير. وقد ورد عن رسول الله ﷺ « ليس منا من تحلم أو تكهن أو ردّه عن سفره تطيّر ». وقد علمنا الرسول ﷺ في حال مرور مثل هذه الأفكار في نفس أحدنا فإنه يحسن به أن يقول: « اللهم لا طير إلا طيرُك ولا خير الا خيرك ولا إله غيرك » ثم يمضي لحاجته وفي خبر « اذا وجد ذلك أحدكم فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك » ثم يذهب متوكلاً على الله، فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك[1].

**موقفه من الكهانة والعرافة والسحر:**

كما نهى الاسلام على التنجيم والتطير نهى أيضاً عن الكهانة والعرافة وعن السحر ونهى عن السعي الى الكاهن والعراف والساحر، ... لقد ورد عن قتادة قوله: « خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأوّل فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم له به ».

وقد ثبت أن الله تعالى ردّ على المشركين تطيرهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم وقال سبحانه: عندما « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم » ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم، بل أنتم قوم مسرفون﴾[2]. ولما قال قوم ثمود لصالح عليه السلام: « اطّيّرنا بك وبمن معك » أجابهم بقوله: ﴿طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون﴾[3] وكان قوم فرعون« إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبْهم سيئة يطّيّروا بموسى ومن معه »، ولقد أخبرنا الله تعالى بقوله جازماً ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[4].

---

(١) القرطبي ٢٦٦/٧

(٢) يس ١٧ - ١٨

(٣) النمل ٤٧ - ٤٨

(٤) الأعراف ١٣١

يه واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1] فلما سمعها معقل قال سمعاً لربّي وطاعة ، ثم كفّر عن يمينه ودعاه وقال له أزوجك اختي وأكرمك »[2].

**موقفه من الخمور والمخدّرات عامة:**

ولما كان الاسلام قد اهتم بالعقل الى حدّ بعيد وجعله مدار دعوته ومناط التكليف ومركز المسؤولية الأساسية في الانسان أمام الله ثم المجتمع. فقد آتخذ من التشريعات ما يضمن وقاية هذا العقل من كل ما قد يعوقه عن القيام بمهمته كما أراد الله؛ فحرّم الخمرة وهي شراب يشربه الإنسان يكون من دواعيه غفلة عقله وفقدانه فاعلِيّته وكاملَ وَعْيِه ورقابتِه لسلوكه وفعله وقوله.

وقد ذهب أشهر علماء اللغة كالجوهري وأبي نصر القشيري وأبي حنيفة الدينوري والمجد صاحب القاموس الى تعريف الخمر بأنها كل مسكر، وهو ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم. وهم من صميم العرب فحرّموا كل مسكر بسبب تحريم الخمر، تحريماً مطلقاً ليس فيه تفريق بين أن يكون المسكر من العنب أو من سواه، بل إنّ أهل الأمر ليقولون إن الخمر قد حرّمت في المدينة ولم يكن شراب أهلها يومئذ إلا نبيذ البسر والتمر.

وقد أقر أبو داوود أنه قد «نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة: من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة. والخمر ما خامر العقل».

والخمرة التي تسلب العقل موازينه وتقتنص قدرته على الادراك والشعور السليم والحكم الصحيح. لا تقل خطراً عن الفكر الوثني على وجود الإنسان وقيمته الوجدانية والعقلية والاجتماعية والحضارية. وإذا كانت الوثنية في القديم والعصور المتخلفة. وفي كل عصر، سبباً من أسباب تخلّف العقل البشري، فالخمرة، بل كل

---

(١) البقرة ٢٣٢

(٢) المنار ٢/٤٠٢

مسكر كان وسيبقى سبباً قوياً من أسباب تدهور امكانات العقل، ومؤثراً سيئاً في انحراف مفاهيم الانسان العليا وقيمه السامية عن مقامها السوي وخطها الرشد. وعاملاً فعالاً في التخلّف الحضاري والأخلاقي.

وقد حرّم الله تعالى الخمرة وجمعها في ذلك مع الأنصاب والأزلام والميسر. وجعلها كلها رجساً من عمل الشيطان والوثنية فقال: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[1].

وأي خطر يخشى أن يداهم كيان الجماعة الاسلامية أسوأ من خطر العداوة والبغضاء التي تثمر دونما شك الفرقة بين الأخ وأخيه والأب وآبنه وأعضاء الأسرة الواحدة والعشيرة الواحدة والمجتمع الواحد!؟. وأي خطر أسوأ من خطر الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة الذي يترك وراءه مادية حمراء متعرّية من القيم مجرّدة من الروحانيات قد أخلدت الى الأرض وما يخرج منها ولهثت وراء الأهواء والمصالح والأنانيات وحاجات الجسد بعيداً عن القيم الروحية والدينية؟!

وقديماً قال قائل بحثاً عن علّة بعض الآثار الاجتماعية ذات المظهر الحسن والسيّء «فتش عن المرأة» أما هنا فإنا نقول في كل ظاهرة اجتماعية سيئة فتش عن الخمرة وعن المسكرات من أي صنف فهي أم الخبائث وأصل كل فساد.

وإذا كان الرسول ﷺ قد حمل على الخمرة والمسكرات كلها، فإن مفهوم ذلك أن كل شيء يذهب توازن العقل ويضعف رقابته ويشوه وعيه، من مشروب أو مشموم أو متعاطى عن طريق الإبر أو الحبوب أو أيّة وسيلة أخرى، هو مرفوض في الاسلام ومحرّم تحريماً قطعياً وينبغي مجافاته والاقلاع عنه.

---

(١) المائدة ٩٠.

**موقف الاسلام من صناعة التماثيل واقتنائها :**

ولمجافاة الوثنية كلياً ، حرم الاسلام صناعة التماثيل أو نحتها من الحجارة أو من الخشب أو من سوى ذلك . سواء كان للعبادة أو للزينة أو إعجاباً بفن الصانع . وذلك لما في ذلك من مضاهاة لصنع الله . وقد ثبت أن مثل هذه الصناعة تدخل على نفس صانعها إعجاباً بقدرته الذاتية في المصاهاة حتى تحمل بعضهم على أن يتساءل أحياناً هو أو من يرى صنعه قائلاً « أليس هذا شبيهاً بخلق الله لولا أنه ينقصه النطق ؟ ! ! » .

ومثل هذا الشعور أو التفكير قد يتطاول لدى البعض ، ويصبح مضاهاة فعلية وحقيقية لخلق الله ونزوعاً الى المنافسة التي لن تكون والتي لا يجوز الدخول فيها وبخاصة من مؤمن يعرف قدره وحدّه . وقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قالت : « قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سَتَرْتُ سَهْوة لي [ أي كوّة ] بقِرام فيه تماثيل . فلما رآه ﷺ تلوّن وجهه وقال : « يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله » .

وقد ذهب جمهور العلماء الى تحريم صناعة التماثيل ونحتها واقتنائها وعرضها في البيوت أو بيعها في الأسواق والنوادي وغيرها ، صيانة للعقيدة مما قد يشوّهها وحفظاً للايمان أن يصيبه ما يفسده .

**موقفه من الأسماء :**

ومن منطلق رفض الوثنية ومظاهرها وتعابيرها ، اتجه الإسلام بحزم حتى الى الأسماء الوثنية التي كان يسمي بها بعض العرب أبناءهم في الجاهلية فألغاها وأبطلها ، فكان كلما اعتنق الاسلام عربي لاسمه صلة بصنم أو برمز وثني استبدله باسم اسلامي ، حتى زالت تلك التسميات بدخول أصحابها في حظيرة الإسلام .

وقد ألف الإنسان هذا المنهج في تاريخه الطويل مع الحركات الدينية حيث قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة وعوّضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة

بالتوراة وبفكرها الديني، وقصت النصرانية على الأعلام والأسماء والوثنية وطورتها لتتلاءم مع النصرانية وآستبدلتها بأخرى أكثر اتفاقاً مع أصولها ومناهجها الدينية.

بل وإن هذا هو ما نراه اليوم في كثير من أنحاء العالم عند دخول الغرباء إليها أو عند حصول انقلابات سياسية فيها، فنجدها تتناول الأسماء أيضاً بالتطوير والتغيير لتماشي خطها الجديد.

وقد ذكرت كتب السير أسماء عدد من الصحابة كانت ذات مسحة وثنية، فلما أسلم أصحابها أبدلها الرسول لهم بأسماء إسلامية؛ فقد كان اسم عبد الله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة الهلالي، عبد عوف بن أصرم، فلما قدم على النبي ﷺ، فقال من أنت؟ قال عبد عوف، قال النبي: أنت عبد الله فأسلم[١]. وقد نقل جمهور النسّابين وأكثر المحدّثين ان اسم أبي بكر كان في الجاهلية عبد الكعبة، وأن رسول الله ﷺ غيّره له عندما أسلم وسماه عبد الله[٢]. كما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف الصحابي الجليل، وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة كان اسمه عندما آعتنق الإسلام عبد عمرو وقيل عبد الحارث وقيل عبد الكعبة، فغيّره له رسول الله ﷺ وسمّاه عبد الرحمن والصادق البار»[٣] وغير هؤلاء كثير.

## موقفه من القبور:

وقد تابع الاسلام وعلى لسان نبيّه الكريم أخذ مواقفه من الوثنية ليجهز عليها وليزيد في تصفية عقائد المسلم من شوائبها ولوثات آلشرك؛ فنهى المؤمنين في مطلع الدعوة عن زيارة القبور وذلك لما كان يقع فيها من التفاخر والمباهاة، ولما كان يجري عليها من التسنيم بالحجارة وبنيان النواويس.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ١٨/٦ - ١٩.
(٢) الاصابة في تمييز الصحابة ٢/٢٦٥
(٣) الرياض النضرة للطبري ٤٦/١

وقد نقل ابن بطال عن الشعبي قوله «لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور لزرت قبر أمي» وكذلك روي عن النخعي قوله: كانوا يكرهون زيارة القبور. وعلى هذا طائفة من السلف وبخاصة وأن البخاري لم يرو أحاديث النسخ عن زيارة القبور. بينما ذهبت طائفة أخرى الى القول بالاباحة ومنهم مالك الذي روى عنه قوله: «كان رسول الله ﷺ نهى عنها ثم اذن. فلو فعل ذلك إنسان، ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً خصوصاً وأنها تـذكّـر الآخـرة، وتحمـل على الحسبان ليوم المصير. فقد روى عنه ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال: «استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي واستأذنته في أن استغفر لها فلم يأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكركم بالآخرة»[1].

وقد ثبت أنه ﷺ نهى عن زيادة القبور أولاً وذلك باتفاق العلماء. وعلّق على ذلك أفاضلهم بقولهم لأن ذلك يفضي الى الشرك. ولكن البعض نقل أنه ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً»[2].

ومهما يكن من أمر، فإن نهي الرسول ﷺ عن زيارة القبور المتفق عليه يلتقي مع موقف الاسلام المبدئي من الوثنية ويثبت بالتالي حرصه على وجوب مجافاة المؤمنين على الدهر كل ممارسة تفضي بهم الى تكريم مظاهرها قصداً أو بغير قصد. فزيارة القبور كانت في الماضي وبخاصة في الفترة القريبة من الجاهلية تنشىء بين الناس وموتاهم صلة وهمية وتسوّغ لهم في كثير من الأحيان القيام بتصرفات والنطق بأقوال قد تميل بهم مع الزمن عن الحق والصراط المستقيم.

واننا في هذا العصر، عصر العلم والتقدم الحضاري الباهر وتفتّح الأذهان المدهش، واتساع الآفاق البشرية وغزارة المعرفة، نرى ونسمع ممن يزور القبور ما لا يتفق ونقاء الإيمان وإخلاص الدين، فيكثر البعض من الاعتراض على الله،

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنائز.

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنائز.

ويبالغ في التساؤل لماذا كان الموت وغير ذلك مما لا يتفق مع التسليم الصحيح لقضاء الله وقدره والخضوع لحكمه الأزلي..

هذا وإن كثيراً من المسلمين يبالغون في تسنيم القبور وإعلائها ويتباهون في بنيانها من أجود أنواع الرخام ويسرفون في الإنفاق على تزيينها. وكل ذلك لا يعبر إلا عن الغفلة عن الله وعن الحق والمصير.

وهذا التصرف وسواه كثير مما نجده في المقابر، يقتضي لفت النظر إليه والتنبيه الى ضرره، لأنه يخالف أوامر الشريعة ووصاياها التي تجعل خير القبور الدوارس. ولا يتفق مع الايمان العميق والخالص بالله وبقضائه الذي خلق الموت والحياة ليبتلي خلقه ويكشف أيهم أحسن عملاً، والذي حكم على كل كائن بالموت ليجري عليه الحساب ويلقيه الجزاء.. يقول الله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميّتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون. ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾[1] ويقول: ﴿ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمّة جاثية، كل أمّةٍ تدعى الى كتابها اليوم تُجْزَوْن ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتْلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين، وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظنّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين﴾[2].

## موقفه من اتخاذ القبور مساجد:

وحديثنا عن القبور عامة يفضي بنا الى الحديث عن قبور الأنبياء والعلماء والأولياء والصالحين وبناء المساجد عليها. وهو ما ابتلى به المسلمون قديماً وحديثاً.

---

(١) المؤمنون ١٦ ـ ١٧.

(٢) الجاثية ٢٧ ـ ٣٢.

وقد اتفق العلماء على ورود النهي عن ذلك قطعاً . لأنه يؤدي بالبسطاء من الناس والجهال والمغفلين الى التصرّف حيالهم بتصرفات شبيهة بالتقديس والعبادة مثل الصلاة والسجود عند قبورهم والتوجه اليها والاستعانة بمن فيها ومطالبتهم بقضاء بعض الحاجات ظنّا منهم أنّهم يملكون النفع والضرر . وهم قد ماتوا وفنيت عظامهم وهو الشرك الذي سقطت فيه الأمم السابقة كالوثنيين والنصارى وغيرهم . .

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : « إنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك »[1] . وروى ابن عباس وغيره من السلف قولهم عن سبب عبادة الأوثان مثل : يغوث وسواع ويعوق ونسر ، أن هؤلاء كانوا صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا عكف الناس على قبورهم ثم صوّروا تماثيلهم وعبدوها .

وإنا لنجد في أيامنا هذه بعض الناس يتهافتون على زيارة قبور الصالحين ليقدّموا لها النذور ، وليضعوا على قبورهم أو في الساحة التي تحيط بها أوراقاً كتبوا عليها حاجاتهم ، كطلب شفاء فلان أو إنجاحه في الامتحان أو تحقيق مطلبه بالتوظف أو الزواج أو سوى ذلك اعتقاداً منهم أن هؤلاء يملكون إجابة دعائهم ورغباتهم والحق أن هذا باطل وغير صحيح . لأن المالك لذلك كله هو الله . والانسان أي انسان سواء كان نبيًّا أو وليًّا أو صالحاً ، عاجز في حياته فضلاً عنه بعد مماته عن أن يملك لنفسه نفعاً أو ضرراً . فكيف بالنسبة الى سواه . يقول الله تعالى لمحمد ﷺ وهو من هو فضلاً ومقاماً عند الله : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلاّ ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[2] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة

(٢) الأعراف ١٨٨

من أجل هذا شدد الرسول ﷺ في تحذير أمته من أن تقع من بعده فيما وقع فيه من سبقهم من الذين أشركوا من الوثنيين. أو ضلوا من أهل الكتاب. ونهاهم عن اتخاذ القبور مساجد. وعن الصلاة اليها.

بل زاد وأخبرنا بأن الله تعالى قد لعن اليهود والنصارى لأنهم آتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. ثم نهى المؤمنين عن التشبه بهم واتباعهم بتعظيم القبور ورفع بنيانها والبناء عليها وتجصيصها وإحاطتها بكل ما يوحي بتعظيمها، لئلا ينقلب ذلك كله الى شبه عبادة تخرج بأصحابها عن الحق، وتنسى عقولهم مقام الربوبية الأعظم. ويكون ما يكون منهم من البهتان والضلال عن سواء السبيل.

**موقفه من الرجعة بعد الموت:**

ولقد انحرف أقوام من العرب بسبب تعظيمهم لموتاهم الى أن اعتقدوا في جاهليتهم برجعة ميتهم الى الدنيا. فكانوا يدفنون معه الطعام وما يحتاجه في قبره ليستفيد منه عند رجعته. لقد قال ابن الأثير: «ولقد أصبحت الرجعة مذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع والأهواء يقولون إن الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حيًا كما كان»[1].

ولقد كانت هذه العقيدة الجاهلية معروفة حتى لدى كبار الصحابة وإن لم يكونوا يؤمنون بها. فإنه لما توفي ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله والله ما مات ليرجعنّ رسول الله ﷺ فليقطّعنَ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات» ولكن أبا بكر رضي الله عنه تصدى له وأدلى بحكم الاسلام الناصع بجزم وحسم وذكره بقول الله تعالى فقال: ﴿على رسلك يا عمر!! فأبى عمر إلا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت له أقبل على الناس، فلما سمعه الناس أقبلوا عليه وتركوا عمر

---

(١) النهاية ٢/٢٠٢

وكان مما قاله: أيها الناس من كان يعبد محمد فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وتلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾(١)

ونحن لا نشك لحظة بأن عمر بن الخطاب كان جاهلاً بهذه الحقيقة وهو حكم الاسلام، وذلك بدليل قوله بعد سماعه كلام أبي بكر: «والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات» ولكنه رضي الله عنه قد صدم بخبر وفاة أحب الناس إليه. فضاع صوابه وزاغ فكره وفقد أعصابه وراح يجري وراء تعليل يلتقطه لهذا الذي رأى عليه رسول الله ﷺ إذ ذاك، فقال ما قال ثم عاد الى الحق لما سمع الحق.

وطلب الرجعة وارد في القرآن الكريم وفي حديث الرسول ﷺ، ولكنه طلبٌ لا يعدو أن يكون ممن قصر في هذه الحياة وأدرك عند الموت تقصيره هذا فهو لذلك يرغب في أن ينسيء الله له في الأجل ليعود من جديد الى الحياة ويعمل غير الذي كان يعمل فيها. بيد أن الله تعالى قد حسم الموقف في هذا المطلب فقال بأن الأجل مكتوب والعمر محدود وانه إذا جاء لا يؤخر. يقول الله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنّا نعمل. أو لم نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾(٢) ويقول: ﴿وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخّرتني الى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ومن يؤخر الله نفساً إذا

---

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) فاطر ٣٦ - ٣٧

جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾[1]

وورد في الحديث عن ابن عباس: «من كان له مال يبلّغه حج بيت الله أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت» أي سأل أن يردّ إلى الدنيا ليحسن العمل ويستدرك ما فات»[2] ولعلّ هذا القول يوضح موقف الاسلام من سبب فكرة الرجعة التي شاعت في بعض الجاهليين وبعض أهل الكتاب حيث إن كل واحد منهم يرى قبيل الموت حقيقة مصيره فيتمنى الرجعة . وفي الكتاب الكريم إشارة الى ذلك إذ يخبرنا الله تعالى بأنه ما من واحد من أهل الكتاب إلا ويكشف الله له الحقيقة عند الموت، فيريه بطلان ما كان عليه وزيفه، فيؤمن بعيسى على أنه رسول الله . ولعله عند ذلك يتمنّى لو يسمح الله له بالرجعة ليصحح عقيدته ويصلح إيمانه، ولكن لا سبيل الى ذلك لأن كتاب الله ماضٍ الى يوم القيامة . يقول الله تعالى: ﴿وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾[3].

وقد قال علماء التفسير في بيان معنى هذه الآية، بأن كل واحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من ركائز الايمان فيؤمن بعيسى إيماناً صحيحاً . فاليهودي يعلم أنه رسول صادق غير دعيّ ولا كذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله، فلا هو إله ولا هو ابن الله، بل ان عيسى عليه السلام سيكون شهيداً على هؤلاء جميعاً بأنهم كانوا كاذبين فيما ذهبوا إليه، ومنه ما حكاه الله في آخر سورة المائدة وهو قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس آتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به

---

(١) المنافقون ١٠ ـ ١١ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٢/٢٠٢

(٣) النساء ١٥٩

ان أعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[1]

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الحديث من اطلاع الناس كل الناس، قبل موتهم على منازلهم من الآخرة من مبشرين برضوان الله وكرامته أو بعذابه وعقوبته وإذلاله. ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت «إن المؤمن اذا حضره الموت بُشّر برضوان الله وكرامته. وإن الكافر إذا حُضِر بُشّر بعذاب الله وعقوبته» وعن عائشة رضي الله عنها: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالوا يارسول الله كلّنا نكره الموت!! فقال ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه، وإن الفاجر إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه من الشر فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه» وعن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنّة أو النار» ومن هذا المعنى ما ورد في سورة يونس وفيه تصريح بأن فرعون حينما أدركه الغرق وتيقّن من الموت قال: «آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين»[2] فقيل له: «الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين»؟![3].

## موقفه من الكبر:

ولو رحنا نعدد المواقف التي اتخذها الرسول ﷺ من الوثنية وما ارتبط بها من عقائد وعادات وأعراف وأخلاق وسلوك لطال بنا الحديث واتسع البحث كثيراً ولكن بقي علينا الاشارة الى ظاهرة نفسيّة هامة يرجع اليها أكبر الأثر في سقوط الناس في الأخطاء والآثام وفي مقدمتها البقاء في الكفر والشرك. وهذه الظاهرة

---

(١) المائدة ١١٦ - ١١٧

(٢) (٣) يونس ٩٠ - ٩١

هي الكبر . وهي كما قال المحاسبي تتشعب عنها أكثر البليات[1]

ونحن هنا إذ نتكلم عن الكبر فلأنه علّة العلل في جحود الحق ومعاندة الرسل وتحقير الصالحين . وجحود الحق صنو الشرك بالله . ومفتاح الوثنية والضلال المبين .

ويلفت القرآن الكريم نظر المؤمنين الى ما كان عليه أمر إبليس عندما أمره الله مع الملائكة بالسجود لآدم، فإنه يخبرنا بأنه أبى واستكبر وكان من الكافرين . فكان الكبر سبب إبائه وعلّة كفره ولعنته . وكذلك يلفت القرآن نظرنا الى موقف المعاندين من طغاة الشعوب وجبابرتهم؛ فيخبرنا عما كان من فرعون وقومه مع موسى فيقول: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾[2] ثم يخبرنا عما كان من فرعون فيقول ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾[3] .

ويتابع القرآن الكريم لفت نظر المؤمنين الى خطر الكبر وضرره وأنه هو الذي كان يسوق كفّار قريش الى العناد والجحود والصدّ عن سبيل الله فيقول: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ مبين﴾[4] كما كان شأن من سبقهم مع أنبيائهم فيقول عن قوم نوح بأنهم قالوا له عندما أمرهم بتقوى الله وطاعته: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾[5] .

ثم يخبرنا سبحانه بأن المتكبرين ستغلق في وجوههم أبواب الرحمة ولن تفتح لهم أبداً، وسيكونون من أصحاب الجحيم، وأنهم لن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الحبل السميك أو الجمل حقيقة في خرم الإبرة يقول الله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٤٤٦ تحقيق عبد القادر عطا .

(٢) النمل ١٤ .

(٣) المؤمنون ٤٥ - ٤٦

(٤) الأحقاف ١١٠ .

(٥) الشعراء١١١ .

بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾[1] .

والمشرك والكافر مستكبران عن الحق متعاليان عليه . وكذلك كان مشركو مكة ؛ فقد قالوا وقد بعث اليهم محمد ﷺ إن في مكة أو في الطائف رجالاً كباراً . فلو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل الوحي على أحد هؤلاء . يقول الله تعالى : ﴿وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون﴾[2]

ولما دخل الاسلام بعض قبائل غفار وأسلم وجهينة وخزاعة ، قال كفار بني عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاة النهم ، إذ نحن أعزّ منهم . وهو مثل القول الذي قاله من قبلهم كفّار قريش عندما اسلم بلال وصهيب الرومي وعمار وانزل الله تعالى فيهم الآية التي ذكرناها سابقاً من سورة الاحقاف .

وهكذا فإننا نريد أن نثبت هنا ، قبل أن نترك الحديث في موقف النبي ﷺ من الوثنية بأن ذم الرسول عليه السلام للكبر وتحذيره الشديد منه كان من ثمرات موقفه من الوثنية والشرك . ولقد تأكد لنا ولكل من يطّلع على سيرته ﷺ ونزاعه الطويل مع قومه أن الكبر كان أحد أسباب إعراض قومه عن الحق وإصرارهم على الباطل ، وأن كثيرين منهم كانوا يعلمون ذلك السخف الذي يترددون فيه ويرون ضياء الحق الذي كان يدعوهم إليه . ولكنهم كانوا بدافع هذا الكبر يعرضون عنه ويتصرفون تصرف من غلبه هواه . وقد روى أنه « قد خرج أبو سفيان ابن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا الى محمد

---

(١) الاعراف ـ ٤٠

(٢) الزخرف

وهو في بيته . فأخذ كل منهم مجلساً يستمع فيه وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه وكان محمد يقوم الليل إلا قليلاً يرتّل القرآن الكريم في هدوء وسكينة، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه . فلما كان الفجر تفرّقوا عائدين الى منازلهم فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم. ولنصر محمداً عليكم . فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه قبل، كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه أمس، وليستمع الى محمد يتلو كتاب ربه . وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد فلم يَحُلْ تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة، فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا ألاّ يعودوا لمثل فعلتهم »[1].

فما الذي منعهم من متابعة الاستماع الى محمد وصرفهم عنه؟ يقول محمد حسين هيكل: « فكيف تريد من هؤلاء الذين كانوا يتسللون لِواذاً يستمعون الى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم في كثير مما يرتكبون وهو لا يفرّق بين الأعمى ومن استغنى بكثرة المال إلا بطهارة النفس، وهو ينادي الناس جميعاً بقوله: « إن أكرمكم عند الله اتقاكم »[2] فإذا ظل أبو سفيان ومن معه على دين آبائه فليس ذلك إيماناً منهم به أو بحق يحتويه، بل هو حرص على نظام قديم أقامه ثم أفاء الحظ عليهم في ظلّه من بسطة المال والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه »[3].

ولهذا فلا تعجب اذا كان موقف النبي ﷺ من الكبر حتى ولو كان مثقال ذرة، كما هو وارد في حديث قدسي من رب العزة « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في النار ولا أبالي »: قال ابن عمر « يحشر

---

(١) حياة محمد هيكل ١٨٨

(٢) الحجرات

(٣) حياة محمد ١٨٨

يحشرون يوم القيامة في صور الذر يتواطؤهم الخلائق »[1] وروى عن عيسى بن مريم عليهما السلام انه قال «إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا وكذلك الحكمة تعمر القلب المتواضع ولا تعمر القلب المتكبّر. ألا ترى أن من شمخ برأسه الى السقف شجه ومن تطأطأ له أظله وأكنّه».

وقد ذم الله الكبر والمشي المتعالي فقال: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾[2] وقال رسول الله ﷺ في مشية التكبر والخيلاء في صفوف القتال: «إن هذه مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموقف».

وهكذا فإن الكبر ظاهرة العجب النفسي، وفي العجب غفلة عن الله وجلاله، وانشغال بالنفس والذات وصغارهما. وهو يبعد عن الحق وكثير من الخير والفضل، ويسوق صاحبه من حيث يشعر أو لا يشعر الى الارتماء في مهاوى الضلالات والشرك بالله أعاذنا الله تعالى منه ووقانا شرّه.

---

(١) كشف الخفاء ٢/١٠٦.

(٢) الاسراء ٣٧ ـ ٣٨

# خاتمة

لقد نشبت الحرب بين النبي ﷺ والوثنيين من أول يوم بعثه الله فيه، حرب كلام وأفكار وعقائد حيث أعلن انه رسول رب العالمين الى الأنس والجن والأحمر والأصفر والأسمر. وقد تطورت هذه الحرب مع الزمن؛ ابتدأت أول الأمر من عجبهم أن يجيئهم منذر منهم وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وعجبوا ان جاءهم منذر منهم﴾[1] ثم بتصدّيهم له بالتكذيب والصدّ عنه. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾[2] ويقول: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾[3] ثم بقذفهم إياه بانه ساحر أو مجنون أو شاعر، واتهامه بأنه يتعلم علمه من البشر، ثم بمصادمته عن طريق التعجيز ومطالبته بالخوارق والمعجزات كأن يريهم الله جهرة، أو ينزل عليهم الملائكة، أو يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً أو يرقى في السماء أو غير ذلك. وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَر﴾[4] وقال ﴿انىّ لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولّوْا عنه وقالوا معلم مجنون﴾[5] وقال: ﴿ما

---

(١) ص ٥.

(٢) الشورى ٢٤.

(٣) الحاقة ٤٤ - ٤٧.

(٤) القمر ٢ - ٤.

(٥) الدخان ١٧ - ١٤

انت بنعمة ربك بمجنون﴾(١) وقال عن الشعراء انهم ﴿في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾(٢) وقال رداً على من اتهمه بأنه ﷺ يعلّمه بشر ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسانٌ عربي مبين﴾(٣) وقال رداً على التحدّيات ﴿قل سبحان ربّي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾(٤) وقال ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذّب بها الأولون﴾(٥) .

ولم يكتف الجاهلون بهذا، بل تطاولوا عليه وعلى أصحابه بوسائل الايذاء المتنوعة، حتى اضطر لحمل أصحابه على الهجرة الأولى ثم الثانية الى الحبشة، ثم كانت هجرته الأخيرة مع أصحابه الى المدينة حيث تهيأت له فيها الفرصة لإنشاء الوجود الاسلامي وتجميعه في ظل كيان موحّد كان نواة الدولة الاسلامية، وبذلك انتقلت الحرب من طور الى طور، من طور الحرب الكلامية والنفسية، والاعلامية الى طور الحرب الدفاعية التي تتوسل بالسلاح مقابل السلاح والقوة لتجابه القوة. وبذلك أخذت الدعوة منعطفاً جديداً فكان لها مداها الأدبي والاجتماعي والديني والسياسي ثم مجالها العسكري..

ولقد ظل رسول الله ﷺ يجنح مع المشركين الى السلم ويحاورهم بالتي هي أحسن. ويلتمس معهم وسائل الاقناع بالحجة والبرهان كما كان يستلهم الله تعالى الصبر على ما كان يلقاه منهم من أذى. ولما اتجه معهم وجهة الحرب والدفاع المسلح كان إذ ذاك قد مضى عليه ثلاثة عشر عاماً من التحمل والصبر والدعوة بالتي هي أحسن. وكان قد طفح منه الكيل، وبلغ السيل الزبى، ويئس من جدوى مراوحة

---

(١) القلم ٣
(٢) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧.
(٣) النحل ١٠٣
(٤) الاسراء ٩٣
(٥) الاسراء ٥٩

منهج اللين والتحمل بعد أن لجأ الى الدفاع عن النفس محافظة على الذات ودفاعاً عن الحرية والكرامة وصيانة للدين والعقيدة، وكان الله تعالى قد أذن له بالقتال لرد الظلم وصرف العدوان، فكانت معارك قاسية استأصل فيها النبي بفضل الله وعونه وصدق أصحابه معه، شأفة الشرك من الجزيرة كلها وأرسى على أنقاضه دعائم الاسلام. ونشر نوره المبين في أرجائها كافة.

ولم يكد يستقر الأمر بالاسلام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حتى كان قد تمكن من تحقيق وصية النبي ﷺ وجعل الجزيرة العربية حصناً للاسلام والمسلمين، فطهر أرضها نهائياً من مظاهر الشرك والوثنية وصيّرها كما ارادها الله مثابة للناس وأمنا يلوذون بها من كل مكان ليجدوا فيها سكينة القلب وطمأنينة النفس وارتياح الفكر..

# فهرس المحتويات

## الفصل الثاني



## الفصل الثالث

## الفصل الرابع

## الفصل الخامس



## الفصل السادس

## الفصل السابع